
الأيام
٢
طه حسين

طه حسين



٢

دار المعارف بمصر

١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو بالقاهرة ج. ع. م.

١

أقام فى القاهرة أسبوعين أو أكثر من أسبوعين ، لا يعرف من أمره إلا أنه ترك الريف وانتقل إلى العاصمة ليطيل فيها المقام طالباً للعلم مختلفاً إلى مجالس الدرس فى الأزهر ، وإلا أنه يقضى يومه فى أحد هذه الأطوار الثلاثة التى يتخيلها ولا يحققها .

فهو يسكن بيتاً غريباً يسلك إليه طريقاً غريبة أيضاً ، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر ، فيدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق فى الليل ، وتفتح فى وسطه فجوة ضيقة بعد أن تصلى العشاء . فإذا تجاوز هذا الباب أحس عن يمينه حرًّا خفيفاً يبلغ صفحة وجهه اليمنى ، ودخاناً خفيفاً يداعب خياشيمه ، وأحس من شماله صوتاً غريباً يبلغ سمعه ويثير فى نفسه شيئاً من العجب .

وقد ظل أياماً يسمع هذا الصوت إذا عاد من الأزهر مصبحاً وإذا عاد منه ممسياً ، يسمعه وينكره ويستحيي أن يسأل عنه ، ثم فهم من بعض الحديث أنه قرقرة الشيشة يدخنها بعض تجار الحى ويهيئها صاحب القهوة التى كان ينبعث منها ذلك الحر الخفيف وذلك الدخان الرقيق . فإذا مضى أمامه خطوات وجاوز ذلك المكان الرطب المسقوف الذى لم تكن تستقر فيه القدم لكثرة ما كان يصب فيه صاحب القهوة من الماء ، خرج إلى طريق مكشوفة ، ولكنها ضيقة قذرة تنبعث منها

روائح غريبة معقدة لا يكاد صاحبنا يحققها ، تنبعث هادئة بغيضة فى أول النهار وحين يقبل الليل ، وتنبعث شديدة عنيفة حين يتقدم النهار ويشتد حر الشمس .

وكان صاحبنا يمضى أمامه فى هذه الطريق الضيقة ، وقلما كانت تستقيم له هذه الطريق . وما أكثر ما كان صاحبه ينحرف به ذات اليمين أو ذات الشمال ليجنبه عقبة قائمة هنا أو هناك ! فكان يسعى حينئذ مستعرضاً قد أدار وجهه نحو هذا البناء عن يمين أو ذاك البناء عن شمال ، حتى إذا جاوز هذه العقبة استقبل الطريق كما بدأها ساعياً أمامه فى خطى رفيقة قلقة ، تأخذ أنفه تلك الروائح المنكرة ، وتأخذ أذنيه أصوات مختلطة مصطخبة تنحدر من عل وتصعد من أسفل ، وتنبعث من يمين وتنبعث من شمال وتلتقى كلها فى الجو ؛ فكأنما كانت تنعقد فتؤلف من فوق رأس الصبى سحاباً رقيقاً ولكنه متراكم قد غشى بعضه بعضاً .

وكانت هذه الأصوات مختلفة أشد الاختلاف : أصوات النساء يختصمن ، وأصوات الرجال يتنادون فى عنف ويتحدثون فى رفق ، وأصوات الأثقال تحط وتُعْتَل ، وصوت السقّاء يتغنى ببيع الماء ، وصوت الحوذى يزجر حماره أو بغله أو فرسه ، وصوت العربة تئزّ عجلاتها أزّاً ، وربما شق هذا السحاب من الأصوات نهيق حمار أو صهيل فرس .

وكان صاحبنا يمضى بين هذا كله مشرد النفس قد غفل أو كاد

يغفل عن كل أمره . حتى إذا بلغ من هذه الطريق مكاناً بعينه سمع أحاديث مختلطة تأتيه من باب قد فتح عن شماله ، فعرف أنه سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد فى السلم الذى سينتهى به إلى حيث يقيم . وكان هذا السلم متوسطاً ليس بشديد السعة ولا بشديد الضيق ، قد اتخذ درجه من الحجر ، ولكن كثر التصعيد فيه والهبوط منه ولم يتعهد بالغسل ولا بالتنظيف ، فتراكم عليه تراب كثيف ، ثم انعقد ولزم بعضه بعضاً حتى استخفى الحجر استخفاء ، وخيل إلى المصعد فيه والهابط منه أنه إنما يتخذ سُلَّماً من الطين .

ومع أن الصبى كان كلفاً بإحصاء الدرج كلما صعد فى سلم أو هبط منه ، فقد أقام ما شاء الله له أن يقيم فى ذلك المكان ، وصعد فى ذلك السلم وهبط منه ما شاء الله له أن يصعد أو يهبط ، ولم يخطر له قط أن يحصى درج هذا السلم ، وإنما علم بعد أن اتخذه مرتين أو مرات أنه إذا صعد منه درجات فلا بد من أن ينحرف قليلا نحو الشمال ليمضى فى التصعيد تاركاً عن يمينه فجوة لم يلجها قط ، ولكنه كان يعلم أنها كانت تؤدى إلى الطبقة الأولى من ذلك البناء الذى أقام فيه أعواماً طوالا .

كان يترك إذن عن يمينه مدخل تلك الطبقة من الطبقات التى لم يكن يسكنها طلاب العلم ، وإنما كان يسكنها أخلاط من العمال والباعة ، ويمضى مصعداً حتى يبلغ الطبقة الثانية ، فلا يكاد يبلغها حتى تجد نفسه المكدودة شيئاً من الراحة يأتيه من هذا الهواء الطلق الذى كان

يبيح له التنفس بعد أن كاد يختنق فى ذلك السلّم القذر ، وتأتيه من صوت تلك الببغاء التى كانت تصوت فى غير انقطاع ، كأنما تُشهد الناس جميعاً على ظلم صاحبها الفارسى الذى سجنها فى ذلك القفص البغيض ، ليبيعها غداً أو بعد غد لرجل آخر يسجنها فى قفص بغيض ؛ حتى إذا تخفف منها وقبض ثمنها نقداً اشترى بدلها خليفة تقوم فى ذلك السجن مقامها وتدعو فيه دعاءها وتنتظر فيه مثل ما كانت تنتظر صاحبتها : أن تنقل من يد إلى يد ومن قفص إلى قفص ، وأن ينتقل معها دعاؤها الحزين الذى يبتهج الناس به من مكان إلى مكان .

كان صاحبنا إذا بلغ أعلى السلم استقبل الهواء الطلق بوجهه ، ودعاه صوت الببغاء إلى أن ينحرف نحو اليمين ، فيفعل ويمضى فى طريق ضيقة ، فيمر أمام بيتين يسكنهما رجلان من فارس : أحدهما لا يزال شابّاً ، والآخر قد تقدمت به السن . فى أحدهما شراسة وغلظة وانقباض عن الناس ، وفى الآخر دعة ورقة وتبسط للناس .

ثم يبلغ الصبى بيته ، فيدخل إلى غرفة هى أشبه بالدهليز ، قد تجمعت فيها المرافق المادية للبيت ، وهى تنتهى به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت . وهى على ذلك غرفة النوم ، وغرفة الطعام ، وغرفة الحديث ، وغرفة السمر ، وغرفة القراءة والدرس . فيها الكتب وفيها أدوات الشاى ، وفيها بعض

رقائق الطعام . وكان مجلس الصبي من هذه الغرفة معروفاً محدوداً كمجلسه من كل غرفة سكنها واختلف إليها . كان مجلسه عن شماله إذا دخل الغرفة ، يمضي خطوة أو خطوتين فيجد حصيراً قد بُسط على الأرض ألقى عليه بساط قديم ولكنه قيم . هنالك يجلس أثناء النهار ، وهنالك ينام أثناء الليل . تُلقى له وسادة يضع عليها رأسه ولحاف يلتف فيه . وكان يحاذى مجلسه من الغرفة مجلس أخيه الشيخ ، وهو أرقى فى مجلسه قليلاً أو كثيراً : حصير قد بُسط على الأرض وألقى عليه بساط لا بأس به ، ثم ألقى على البساط فراش آخر من اللبد ، ثم ألقى من فوق هذا الفراش حشيّة طويلة عريضة من القطن ، ثم بُسطت من فوقها ملاءة . على هذه الحشية كان يجلس الفتى الشيخ ويجلس معه أصفياؤه . ولم يكونوا يسندون ظهورهم إلى الحائط كما كان يفعل الصبي ، وإنما كانوا يسندونها إلى وسائد قد رُصّتْ على الحشية رصًّا ؛ فإذا كان الليل استحال هذا المجلس سريراً ينام عليه الفتى الشيخ .

٢

لم يكن الصبي يعرف من بيئته القريبة أكثر من هذا . فأما الطور الثانى من أطواره فقد كان اضطرابه فى الطريق بين هذه البيئة وبين الأزهر . وكان يخرج من ذلك المكان المسقوف ، فيجد حر القهوة على صفحة وجهه من شمال ، وتبلغ قرقرة الشيشة أذنه اليمنى ، فيستقبل حانوتاً كان له فى حياته أثر عظيم : حانوت الحاج فيروز الذى كان يبيع لأهل الحى أكثر ما كانت تقوم عليه حياتهم من الغذاء: يبيع لهم ألوان الفول المدمس إذا أصبحوا . وكان الفول عنده كما هو عند غيره ألواناً مختلفة ، ولكنه كان يمتاز بإتقانه ويغالى بثمنه ؛ فقد كان يبيع الفول صرفاً ، وكان يبيعه بالزيت على اختلاف ألوانه ، وكان يبيعه بالسمن ، وكان يبيعه بالزبد ، وكان يضيف إليه عند الحاجة فنوناً من التوابل ترغّب فيه وتغرى به وتدفع طلاب العلم إلى أن يسرفوا على أنفسهم إذا طعموا منه ، ثم يثقلون بعد ذلك عن درس الضحى وينامون أثناء درس الظهر .

فإذا أقبل المساء فقد كان الحاج فيروز يبيع لأهل الحى طعامهم من الجبن والزيتون والطحينة والعسل؛ وربما باع للمترفين منهم علب التونة والسردين ، وربما باع لبعضهم حين يتقدم الليل أشياء لم تكن تسمى ولم تكن تؤكل ، وإنما كان يتحدث المتحدثون عنها همساً

ويتنافسون فيها تنافساً شديداً .

وكان الصبي يسمع لهذا الهمس فيفهم حيناً ، ويستغلق الأمر عليه فى أكثر الأحيان . حتى إذا مضت الأيام وتبعتها الأيام وشبّ الصبي وأتيح له أن يفهم عن الملغزين وأصحاب الرمز ، علم ما علم ، فتغيرت فى نفسه قيم كثير من الأشياء ، ومعايير كثير من الأحكام ، وأقدار كثير من الناس .

وكان الحاج فيروز رجلا أسود فاحماً طويلا قليل الكلام ، فإذا تكلم لم يكد يبين ، وإنما كان يلتوى لسانه بالعربية التواء غريباً ترك فى نفس الصبي أثراً لا يمحى ؛ فهو لا يقرأ فى « البيان والتبيين » قصة زياد مع غلامه حين أراد أن يقول له : « أهدى إلينا حمار وحش » ، فجعل الحاء هاء فى الكلمتين . وأنكر زياد عليه ذلك فقال له : « ويلك ! قل أهدى إلينا عير » . فلما قال الغلام ذلك جعل العين همزة ، فارتاع زياد ورده إلى حمار الوحش .

لا يقرأ هذه القصة إلا ذكر الحجاج فيروز . وكان للحاج فيروز فى الحى وبين طلاب العلم من أهله خاصة خطر عظيم ؛ فإليه كانوا يفزعون إلى تقدم الشهر أو تأخر الراتب أو نفدت النقود . يفزعون إليه ليطعمهم نسيئة ، ويفزعون إليه ليقرضهم القرش أو القروش ، ويفزعون إليه فى كثير من شؤونهم . ولذلك كان اسمه يدور على ألسنتهم كما كانت تدور عليها أسماء كثير من شيوخهم الأعلام فى الأزهر.

وكان للحاج فيروز خطر عظيم آخر فى حياة هؤلاء الطلاب ؛ فباسمه كانت ترسل إليهم الرسائل التى تحمل إليهم أخبار الأسر ، والتى تحمل إليهم فى طياتها أحياناً تلك الورقة الضئيلة التى كانوا يذهبون بها إلى مكتب البريد فيدخلون وجيوبهم خالية ، ويخرجون وللفضة فى جيوبهم رنين حسن الوقع فى آذانهم وقلوبهم أيضاً .

ومن هنا لم يكن بد لكل واحد منهم من أن يمر بالحاج فيروز ليحييه إذا أصبح ، وليحييه إذا أمسى ، وليلقى فى أثناء ذلك نظرة سريعة خاطفة إلى ذلك المكان الذى كانت الرسائل تنتظر فيه أصحابها . وما أكثر ما كان أحدهم يعود إلى بيته وفى يده ذلك الغلاف المقفل قد أصابه كثير من وضر الزيت والزبد ! وإن هذا الغلاف على قذارته لآثر عنده من هذه الملزمة أو تلك من هذا الكتاب أو ذاك من كتب الفقه أو كتب النحو أو كتب الأصول .

كان الصبى إذن يستقبل حانوت الحاج فيروز إذا خرج من ذلك الممر المسقوف ، وربما خطا مع صاحبه خطوات فحيا الحاج فيروز والتمس عنده رسالة فوجدها أو لم يجدها ، فانصرف مبتسماً أو عابساً ، واستدار إلى الشمال فمضى أمامه فى ذلك الشارع الطويل الضيق المزدحم بالمارة من الطلاب والتجار والباعة والعمال وعجلات الحمل تجرها الحمر أو تجرها الخيل أو تجرها البغال ، ويصيح بها الحوذية زاجرين حيناً ومتلاحين حيناً آخر ومخاصمين لمن يعترض طريقهم من الرجال والنساء والصبية أحياناً . وعن يمين هذا الشارع وعن

شماله حوانيت مختلفة ، منها ما يهيأ فيه طعام الفقراء والبائسين ، فيحمل الهواء منها روائح كريهة ، ولكنها مع ذلك كانت محببة إلى كثير من هؤلاء المارة بين طلاب العلم والعاملين بأيديهم والحاملين على ظهورهم وكواهلهم . منهم من كان يعطف على هذه الحوانيت فيشترى منها القليل يلتهمه فى مكانه التهاماً أو يحمله إلى بيته ليستأثر به أو يشارك فيه ، ومنهم من تبلغه هذه الروائح فتثيره ولكنه لا يثور ، وتدعوه ولكنه لا يجيب ، قد رأت عينه وشم أنفه وتحركت شهوته ، ولكن قصرت يده وخانه جيبه ، فمضى وفى نفسه حاجة وفى قلبه موجدة وحفيظة ، وفيه مع ذلك رضا بالقضاء وإذعان للقدر .

ومن هذه الحوانيت ما كانت تدار فيه تجارة هادئة مطمئنة صامتة لا تقول شيئاً أو لا تكاد تقول شيئاً ؛ فإن نطقت فإنما تنطق همساً لا يكاد يسمع ، وتنطقه فى ظرف وأدب وفى رقة وتلطف ، وهى على هذا كله بل لهذا كله تغل على أهلها الثراء الضخم والمال الكثير . وكانت أكثر هذا الحوانيت إنما تدار فيها تجارة البن والصابون ، وربما أديرت فى بعضها تجارة السكر والأرز أيضاً .

وكان الصبى يسعى بين هذا كله يحسه إحساساً قويًّا ويجهله جهلا شديداً ، لولا أن صاحبه كان يفسر له بعض ذلك من حين إلى حين . وما يزال الصبى ماضياً فى طريقه ، تعتدل مواطئ أقدامه حيناً وتعوج حيناً آخر ، وهو يسعى حسن السعى ما اعتدلت له الطريق ، ويسعى متعثراً فى أذياله حين تعوج أو تضطرب ، حتى يبلغ موضعاً ينحرف

فيه قليلا نحو الشمال ، ثم يندفع فى طريق ضيقة أشد الضيق ، ملتوية أشد الالتواء ، قذرة أشد القذارة ، قد استقر فيها هواء فاسد كل الفساد ، انعقدت فيه روائح كريهة منكرة ، وانبعثت فيه بين حين وحين أصوات نحيلة ضئيلة تصور البؤس وتبين عن الضر وتلحف فى السؤال ، يبعثها وقع الخطى كأن أصحابها لا يحسون الحياة إلا بآذانهم ، فهم يدعونها كلما سمعوها ، وتتجاوب فيها أصوات أخرى قصيرة غليظة مختنقة متقطعة ، هى أصوات هذه الطير التى تحب الظلمة وتأنس إلى الخلوة وتألف الخراب . وربما اختلطت هذه الأصوات بخفق الأجنحة ، وربما دنا هذا الخفق من أذن الصبى أو من جهه فأخافه وأفزعه ، وإذا يده ترتفع فجأة وعلى غير إرادة لتحمى وجهه أو أذنه ، وإذا قلبه يخفق خفقاً خفيفاً متصلا .

وهو يمضى مع صاحبه فى هذه الطريق الضيقة المظلمة الملتوية ، يصعد قليلا لينحدر قليلا ، ويمضى أمامه ليعطف عن يمينه ، ثم يمضى أمامه ليعطف عن شماله . وهذه الأصوات المنكرة المختلفة تدعوه مرة وتشيعه مرة أخرى وتؤذيه دائماً ، حتى يشعر بعد حين بأن قلبه قد هدأ ، وبأن صدره قد اتسع ، وبأن طريق التنفس قد استقامت له ، فيبعث من جوفه نفساً طويلا كأنه يحمل كل ما استقر فى نفس الصبى من ألوان الذعر والألم والحزن .

ثم يتنفس حرًّا طليقاً كأنما يستنشق الحياة فى هذا الهواء الطلق الذى أخذ يغمره منذ خرج من « حارة الوطاويط » ، ومضى أمامه

فى تلك الطريق المنحدرة التى لا تعتدل لقدميه، ولكن ما هى إلا لحظات قصيرة ، حتى تعتدل الطريق وتستوى الأرض لقدميه فهو يسعى معتدلا مطمئناً ، قد تهيأت نفسه لشىء من الفرح والمرح تحمله إليه هذه الأصوات الغريبة المختلطة التى يسمعها حين يسعى فى ذلك الشارع الهادئ الحلو ، وعن شماله مسجد سيدنا الحسين ، وعن يمينه هذه الحوانيت الصغيرة التى طالما وقف عند بعضها حين تقدمت به الأيام فذاق من طيباتها ما شاء الله له أن يذوق .

ذاق التين المرطب وشرب نقيعه فى أثناء الصيف ، وذاق البسبوسة واستمتع بما تبعثه من الحرارة فى الأجواف أثناء الشتاء . وربما وقف عند بعض الباعة من السوريين فذاق ألواناً من الطعام ، منها الحار ومنها البارد ، ومنها الحلو ومنها الملح ، كان يجد فى ذوقها لذة لا تقدر ، ولو قدمت إليه الآن لأشفق أن تحمل إليه العلة أو تغرى به الموت .

وكان يمضى فى طريقه هذه حتى يبلغ مكاناً تختلط فيه الأصوات وترتفع ، ويشعر بأن الطريق قد افترقت فيه ؛ فهو يستطيع أن يمضى أمامه ، وأن يمضى عن يمين ، وأن يمضى عن شمال ، وأن يعود أدراجه .

وكان صاحبه يقول له : هذه هى المفارق الأربعة ، إن مضيت عن يمينك فإلى السكة الجديدة ثم الموسكى ثم العتبة الخضراء ، وإن مضيت عن شمالك فهى الدراسة ، ولكننا سنمضى أمامنا

فنسلك شارع الحلْوَجىّ ، وهو شارع العلم والجد والعمل ، ضيق تكاد تبلغ جانبيه إذا مددت يديك عن يمين وشمال . ولكنك تمضي بين حوانيت صغيرة تباع فيها الكتب جديدها وقديمها . جيدها ورديئها ، مطبوعها ومخطوطها ، وكم كانت للصبى فى ذلك الشارع الضيق وقفات خصبة ممتعة لم ينسها قط حين تقدمت به الأيام واختلفت عليه أطوار الحياة . ولكنه عَجِلٌ فيجب أن يبلغ صاحبه الأزهر قبل أن يبتدئ الدرس . وها هو ذا قد بلغ « باب المزينين » ، فخلع نعليه وخالف بينهما وأخذهما فى يده ومضى مع صاحبه . فلما تقدّم قليلا تخطى عتبة قليلة الارتفاع ، ثم انفرج له صحن الأزهر هادئاً مطمئناً يترقرق فيه نسيم بارد هو نسيم الصباح . وهو الآن فى الطور الثالث من أطوار حياته الأولى .

٣

وكان هذا الطور أحب أطوار حياته تلك إليه وآثرها عنده .
كان أحب إليه من طوره ذاك فى غرفته التى كان يشعر فيها بالغربة شعوراً قاسياً ؛ لأنه لا يعرفها ولا يعرف مما اشتملته من الأثاث والمتاع إلا أقله وأدناه إليه ؛ فهو لا يعيش فيها كما كان يعيش فى بيته الريفى وفى غرفاته وحجراته تلك التى لم يكن يجهل منها ومما احتوت عليه شيئاً ، وإنما كان يعيش فيها غريباً عن الناس وغريباً عن الأشياء ، وضيقاً حتى بذلك الهواء الثقيل الذى كان يتنفسه فلا يجد فيه راحة ولا حياة ، وإنما كان يجد فيه ألماً وثقلا .

وكان أحب إليه من طوره الثانى فى طريقه تلك بين البيت والأزهر ؛ فقد كان فى ذلك الطور مشرداً مفرق النفس مضطرب الخطى ممتلىء القلب بهذه الحيرة المضلة الباهظة التى تفسد على المرء أمره وتجعله يتقدم أمامه لا على غير هدى فى طريقه المادية وحدها — فقد كان ذلك محتوماً عليه — بل على غير هدى فى طريقه المعنوية أيضاً ؛ فقد كان مصروفاً عن نفسه بما يرتفع حوله من الأصوات وما يضطرب حوله من الحركات . وقد كان مستخذياً فى نفسه من اضطراب خطاه وعجزه من أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة الحادثة ومشية صاحبه المهتدية العازمة العنيفة .

فأما فى طوره الثالث هذا فقد كان يجد راحة وأمناً وطمأنينة واستقراراً . كان هذا النسيم الذى يترقرق فى صحن الأزهر حين تصلّى الفجر يتلقى وجهه بالتحية فيملأ قلبه أمناً وأملا . وما كان يشبه وقع هذا النسيم على جبهته التى كانت تندى بالعرق من سرعة ما سعى ، إلا بتلك القبلات التى كانت أمه تضعها على جبهته بين حين وحين ، فى أثناء إقامته فى الريف حين يقرأها آيات من القرآن أو يمتعها بقصة مما قرأ فى الكتب أثناء عبثه فى الكتاب ، أو حين كان يخرج ضعيفاً شاحباً من خلوته تلك التى كان يتوسل فيها إلى الله بعدية يس ليقضى هذه الحاجة أو تلك من حاجات الأسرة .

كانت تلك القبلات تُنعش قلبه وتشيع فى نفسه أمناً وأملا وحناناً ، وكان ذلك النسيم الذى كان يتلقاه فى صحن الأزهر يشيع فى نفسه هذا كله ويرده إلى الراحة بعد التعب ، وإلى الهدوء بعد الاضطراب ، وإلى الابتسام بعد العبوس . ومع ذلك فلم يكن يعلم من أمر الأزهر شيئاً ، ولم يكن يعرف مما يحتويه الأزهر شيئاً ، وإنما كان يكفيه أن تمس قدميه الحافيتين أرضُ هذا الصحن ، وأن يمس وجهه نسيمُ هذا الصحن ، وأن يحس الأزهر من حوله نائماً يريد أن يستيقظ ، وهادئاً يريد أن ينشط ليعود إلى نفسه أو لتعود إليه نفسه . وإذا هو يشعر أنه فى وطنه وبين أهله ، لا يحس غربة ولا يجد ألماً ، وإنما هى نفسه تتفتح من جميع أنحائها ، وقلبه يتشوق من جميع أقطاره ليتلقّى . . . ليتلقّى ماذا ؟ ليتلقى شيئاً لم يكن يعرفه ،

ولكنه كان يحبه ويدفع إليه دفعاً ، طالما سمع اسمه وأراد أن يعرف ما وراء هذا الاسم ، وهو العلم .

وكان يشعر شعوراً غامضاً ولكنه قوى بأن هذا العلم لا حد له ، وبأن الناس قد ينفقون حياتهم كلها ولا يبلغون منه إلا أيسره . وكان يريد أن ينفق حياته كلها وأن يبلغ من هذا العلم أكثر ما يستطيع أن يبلغ مهما يكن فى نفسه يسيراً . وكان قد سمع من أبيه الشيخ ومن أصحابه الذين كانوا يجالسونه من أهل العلم أن العلم بحر لا ساحل له ، فلم يأخذ هذا الكلام على أنه تشبيه أو تجوز ، وإنما أخذه على أنه الحق كل الحق .

وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يلقى نفسه فى هذا البحر فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ثم يموت فيه غرقاً . وأى موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذى يأتيه من العلم ويأتيه وهو غـَرِقٌ فى العلم !

كانت هذه الخواطر كلها تثور فى نفسه الناشئة فجأة ، فتملؤها وتملكها وتنسيها تلك الغرفة الموحشة وتلك الطريق المضطربة الملتوية ، بل تنسيها الريف ولذات الريف ، وتشعرها بأنها لم تكن مخطئة ولا غالية حين كانت تتحرق شوقاً إلى الأزهر وضيقاً بالريف .

• وكان الصبى يسعى أمامه مع صاحبه حتى يقطع الصحن ويصعد هذه الدرجة اليسيرة التى يبتدئ بها الأزهر نفسه ، فيتملئ قلبه خشوعاً ، وخضوعاً ، وتمتلئ نفسه إكباراً وإجلالا . ويخفف الخطو

على هذه الحُصُر المبسوطة البالية التى كانت تنفرج أحياناً عما تحتها من الأرض ، كأنها تريد أن تتيح لأقدام الساعين عليها شيئاً من البركة بلمس هذه الأرض المطهرة . وكان الصبى يحب الأزهر فى هذه اللحظة حين ينفتل المصلون من صلاة الفجر وينصرفون وفى عيونهم النعاس ، ليتحلقوا حول هذا العمود أو ذاك ، وينتظروا هذا الأستاذ أو ذاك ، فيسمعوا منه درس الحديث أو درس التفسير أو درس الأصول أو درس التوحيد .

كان الأزهر فى هذه اللحظة هادئاً لا ينعقد فيه ذلك الدوى الغريب الذى كان يملؤه منذ تطلع الشمس إلى أن تصلى العشاء ، وإنما كنت تسمع فيه أحاديث يتهامس بها أصحابها ، وربما سمعت فتى يتلو القرآن فى صوت هادئ معتدل ، وربما مررت إلى جانب مصل لم يدرك الجماعة أو أدركها ولكنه مضى فى التنقل بعد أن أدى الفريضة . وربما سمعت أستاذاً هنا أو هناك يبدأ درسه بهذا الصوت الفاتر ، صوت الذى استيقظ من نومه فأدى صلاته ولم يطعم بعدُ شيئاً يبعث فى جسمه النشاط والقوة ، فهو يقول فى صوت هادئ حلو منكسر بعض الشىء : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . قال المؤلف رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه آمين » .

والطلاب يسمعون لهذا الصوت فى هدوء وفتور يشبهان هدوء

الشيخ وفتوره . وما أكثر ما كان الصبي يوازن في نفسه بين أصوات الشيوخ حين ينطقون بهذه الصيغة في درس الفجر ، وأصواتهم حين ينطقون بها في درس الظهر ! فأما أصوات الفجر فكانت فاترة حلوة فيها بقية من نوم . وأما أصوات الظهر فكانت قوية عنيفة ممتلئة فيها شيء من كسل أيضاً ، تصور امتلاء البطون بما كانت تمتلئ به من طعام الأزهريين في ذلك الوقت الذي كان الأزهريون يعيشون فيه على الفول والمخلل وما يشبه الفول والمخلل من ألوان الطعام .

كان في أصوات الفجر دعاء للمؤلفين يشبه الاستعطاف ، وكان في أصوات الظهر هجوم على المؤلفين يوشك أن يكون عدواناً ، وكانت هذه الموازنة تعجب الصبي وتثير في نفسه لذة ومتاعاً . وكان يسعى مع صاحبه حتى يرقى هاتين الدرجتين اللتين يبتدئ بهما الليوان ، وهناك إلى جانب عمود من هذه الأعمدة المباركة قد شد إليه كرسي بسلسلة غليظة يجلسه صاحبه ويقول له : انتظر هنا فستسمع درساً في الحديث ، فإذا فرغت من درسي فسأعود إليك .

وكان درس صاحبه في أصول الفقه ، وكان أستاذ صاحبه الشيخ راضي رحمه الله ، وكان الكتاب الذي يدرسه الشيخ راضي كتاب التحرير للكمال بن الهمام . وكان الصبي يسمع هذه الألفاظ كلها فيمتلئ لها قلبه رهباً ورغباً ومهابة وإجلالا . أصول الفقه ، ما عسى أن يكون هذا العلم ؟ الشيخ راضي ! من عسى أن يكون هذا الشيخ ؟ التحرير ! ما معنى هذه الكلمة ؟ الكمال بن الهمام !

ما أعظم هذين الاسمين ! حقاً إن العلم بحر لا ساحل له ، والخير كل الخير للرجل الذكي أن يغرق فيه . وكان إجلال الصبي لهذا الدرس خاصة يزداد ويعظم من يوم إلى يوم حين كان يسمع أخاه ورفاقه يطالعون الدرس قبل حضوره فيقرءون كلاماً غريباً ولكنه حلو الموقع فى النفس .

كان الصبي يسمعه فيتحرق شوقاً إلى أن تتقدّم به السن ستة أعوام أو سبعة ليستطيع أن يفهمه وأن يحل ألغازه ويفك رموزه ، ويتصرف فيه كما كان يتصرف فيه أولئك الشبان البارعون ، ويجادل فيه أساتذته كما كان يجادل فيه أولئك الشبان البارعون ، ولكنه الآن مضطر إلى أن يسمع ولا يفهم . وما كان أكثر ما يقلّب فى نفسه هذه الجملة أو تلك لعله يجد وراءها شيئاً فلا يظفر بطائل ، ولا يزيده ذلك إلا إكباراً للعلم ، وإجلالا للعلماء ، وإصغاراً لنفسه ، واستعداداً للعمل والجد !

وقد سمع جملة بعينها شهد الله أنها أرّقته غير ليلة من لياليه ، ونغّصت عليه حياته غير يوم من أيامه ، ولعلها أن تكون قد صرفته عن غير درس من دروسه اليسيرة ؛ فقد كان يفهم دروسه الأولى فى غير مشقة ، وكان ذلك يغريه بالانصراف عن حديث الشيخ إلى التفكير فى بعض ما سمع من أولئك الشبان النجباء .

وكانت هذه الجملة التى ملأت نفسه وقلبه غريبة فى حقيقة الأمر ، وقعت على أذنه وهو فى أول النوم وآخر اليقظة ، فردته إلى

اليقظة ليله كله ، وهى « والحق هدم الهدم » . ما معنى هذا الكلام ؟ كيف يهدم الهدم ؟ وما عسى أن يكون هذا الهدم ؟ وكيف يكون الهدم حقًّا ؟ وجعلت هذه الجملة تدور فى رأسه كما يدور هذيان الحمى فى رأس المريض، حتى صُرِف عنها ذات يوم بإشكال من إشكالات الكفراوى ، أقبل عليه ففهمه وجادل فيه ، وأحس أنه بدأ يشرب من ذلك البحر الذى لا ساحل له وهو بحر العلم .

وكان الصبى يجلس إلى جانب ذلك العمود ، يعبث بتلك السلسلة ، ويسمع للشيخ وهو يلقى دروسه فى الحديث ، فيفهم عنه فى وضوح وجلاء ، ولا ينكر منه إلا تلك الأسماء التى كانت تَسَّاقَطُ على الطلبة يتبع بعضها بعضاً، تسبقها كلمة « حدثنا » وتفصل بينها كلمة « عن » .

وكان الصبى لا يفهم معنى لهذه الأسماء ولا لتتابعها ولا لهذه « العنعنة » المملة ، وكان يتمنى أن تنقطع هذه العنعنة وأن يصل الشيخ إلى الحديث ، فإذا وصل إليه سمعه الصبى ملقياً إليه نفسه كلها فحفظه وفهمه ، وأعرض عن تفسير الشيخ ؛ لأنه كان يذكّره ما كان يسمع فى الريف من إمام المسجد ، ومن ذلك الشيخ الذى كان يعلّمه أوليات الفقه .

وبينما كان الشيخ يمضى فى دروسه كان الأزهر يستيقظ شيئاً فشيئاً ، كأنما كانت تنبهه أصوات أولئك الشيوخ الذين كانوا يُلقون دروسهم ، وما كان يثور بينهم وبين طلابهم من حوار يبلغ العنف

أحياناً . فهؤلاء الطلاب يُقبلون ، وهذه الأصوات ترتفع ، وهذا الدوى ينعقد ، وهؤلاء الشيوخ ترتفع أصواتهم لتبلغ آذان التلاميذ ، بل هؤلاء الشيوخ يضطرون أن ينطقوا بهذه الصيغة التى تؤذن بانتهاء الدرس ، وهى : « والله أعلم » ؛ لأن الطلاب قد أقبلوا ينتظرون درس الفقه من شيخ غير هذا الشيخ ، أو من الشيخ نفسه ؛ فلا بد من أن ينتهى درس الفجر ليبدأ درس الصبح . هنالك كان يُقبل على الصبى صاحبه فيأخذه بيده فى غير كلام ويجذبه فى غير رفق ، ويمضى إلى مجلس آخر فيضعه فيه كما يضع المتاع وينصرف عنه .

وقد فهم الصبى أنه قد نقل إلى درس الفقه ، وأنه سيسمع هذا الدرس وسيفرغ منه ، وسينصرف الشيخ ويتفرق الطلاب ، ويبقى هو فى مكانه لا يتحول عنه حتى يعود إليه صاحبه من سيدنا الحسين حيث كان يسمع درس الفقه الذى كان يلقيه الشيخ بخيت رحمه الله .

وكان الشيخ بخيت يحب الإطالة فى الدرس ، وكان طلابه يلحون عليه فى الجدال ؛ فلم يكن يقطع درسه حتى يرتفع الضحى ، وهنالك يعود إلى الصبى صاحبه فيأخذه بيده فى غير كلام ، ويجذبه فى غير رفق ، ويمضى به حتى يخرجه من الأزهر وحتى يرده إلى طوره الثانى ، فيقطع به الطريق بين الأزهر والبيت ، ثم إلى طوره الأول ، فيلقيه فى مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم الذى ألقى على حصير بال عتيق .

٤

ولم يكن الصبي يفرغ لنفسه إذا أخذ مجلسه على ذلك البساط فى ركن من أركان الغرفة ، واعتمد بيده أو بساعده على النافذة عن شماله ، وإنما كان يستعرض الخواطر التى كانت تملأ رأسه : خواطر الطريق ، وخواطر صحن الأزهر ، وخواطر ما سمع من أستاذ الحديث وما سمع من أستاذ الفقه . كان يستعرض هذه الخواطر ويعيش معها لحظات لا تطول ؛ فإن أخاه لم ينصرف عنه حين ألقاه فى مجلسه ذاك ليفرغ لنفسه وحدها ، أو لدرسه وحده ، وإنما انصرف عنه ليعد طعام الإفطار .

وكان هذا الإفطار يختلف بين يوم ويوم لا فى مادته ، فقد كان الفول يغرقه السمن أو يغرقه الزيت ، ولكن فيما يحيط به من الظروف والأطوار . فقد كان هذا الإفطار صامتاً يوماً وناطقاً مصطخباً يوماً آخر . صامتاً حين يخلو الصبي إلى أخيه فيفطران معاً إفطاراً سريعاً مظلماً قاتماً لا يكاد أحدهما ينطق فيه بشىء ، وإنما هى جمل متقطعة قصار يردّها الصبي على الشيخ الفتى . وناطقاً مصطخباً حين يشارك فيه زملاء الشيخ الفتى . وكانوا ثلاثة حيناً وأربعة حيناً ، وربما بلغوا خمسة فى بعض الأيام ، ولكن لخامسهم هذا شأناً آخر ، فالخير ألا يذكر الآن .

هنالك كان هؤلاء الشباب من طلاب العلم ينفقون ساعة حلوة من ساعات حياتهم ، وكان الصبي يهمل إهمالا تامًّا لا تلقى إليه جملة ، ولا يحتاج إلى أن يرجع على أحد جواباً .

وكان ذلك أحب إليه وآثر عنده ؛ فقد كان يروقه أن يسمع . وما أكثر ما كان يسمع ! وما أغرب ما كان يسمع ! وما أشد اختلاف ألوان الأحاديث التى كان يسمعها حول هذه المائدة المستديرة المنخفضة التى كانوا يسمونها « الطبلية » والتى كان يجلس الطاعمون من حولها على الأرض وقد وضع فى وسطها طبق عظيم ملئ بالفول والسمن أو الزيت ، وإلى جانبه إناء عظيم ملئ بألوان المخلل الغارقة فى ماء يعبّ فيه هؤلاء الشباب قبل أن يأخذوا فى طعامهم . يبدأ أحدهم ، ثم يدار الإناء على سائرهم ، ولكنه لا يعرض على الصبي . حتى إذا أخذوا حظهم من هذا الماء الملح الحاد الذى كان يحرّش المعدة فيما يقولون مخلصين ، أقبلوا على طعامهم . وقد ألقيت على المائدة جماعات من الأرغفة ، منها ما يشترى ومنها ما أخذ جراية من الأزهر . والشباب يتنافسون أيهم يقهر أصحابه فى الأكل : يقهرهم فى عدد ما يلتهم من الأرغفة ، ويقهرهم فى مقدار اللقمة التى يقتطعها ، ويقهرهم فى مقدار ما يغترف فيها من الفول وما يبلّها به من السمن أو الزيت ، ويقهرهم فيما يستعين به على هذا كله من اللّفت أو الفلفل أو الخيار .

وهم يتنافسون ويزدحمون فى أصوات مرتفعة ، وضحكات تملأ

الغرفة ، وتخترق النافذة عن شمال فتتردد فى الحارة من ورائها ، وتخترق الباب عن يمين فتتردد فى « الربع » وتهبط إلى الطبقة السفلى حيث نساء العمال يختصمن أو يتناجين أو يتناغين ، فتنقطع لهذه الضحكات خصومتهن ومناجاتهن ومناغاتهن ، وإذا هن قد فرغن لهذه الأصوات المرتفعة وهذه الضحكات المضطربة التى يحملها إليهن الهواء ، كأنما يجدن فى الاستماع لها والاستمتاع بها لذة لا تعدلها إلا اللذة التى يجدها هؤلاء الشباب فيما يلتهمون ويلتقمون من الطعام .

والصبى جالس بينهم قد أطرق إلى الأرض ، وحنى ظهره حتى كأنه القوس ، ويده تذهب وتجىء فى أناة وخوف واستيحاء بين هـــذا الرغيف قد ألقى أمامه على المائدة ، وهـــذا الطبق قد قام بعيداً عنه فى وسط المائدة ، ويده تصطدم بهذه الأيدى الكثيرة المسرعة التى تهوى لترتفع ، وترتفع لتهوى ، وتنزح الطبق فى أثناء ذلك نزحاً . والصبى معجب بذلك منكر له ، لا يكاد يلائم فى نفسه بين هذا التهالك على الفول والمخلل ، وذلك التهالك على العلم والدرس وما كانت تعرف به هذه الجماعة من النجابة والنشاط وحدة الذكاء .

ولم يكن هذا الإفطار يستغرق من هؤلاء الشباب وقتاً طويلا ، وإنما هى لحظات لا تتجاوز ربع الساعة وقد فرغ ما كان فى الطبق ، ونظفت المائدة إلا من فُتات ضئيل ، ومن نصف الرغيف

الذى كان قد ألقى أمام الصبى فلم يستطع أو لم يُرِدْ أن يتجاوز نصفه . وما هى إلا لحظة حتى ترتفع المائدة ويذهب بها ذاهب إلى خارج الغرفة فينقّيها مما كان عليها ، ثم يعود بها إلى مكانها نظيفة ملساء إلا مما كان قد تقاطر عليها من السمن أو ماء المخلل . وقد ذهب أحد هؤلاء الشبان فاستخرج مقداراً من الفحم . فحم الخشب ، وأعدّ أداة الشاى ، هذه الأداة التى يصطنعها الفرس والروس ، فأوقد فيها النار بعد أن ملأها بالماء، وعاد بها وقد صَفَتْ جذوتها ، فوضعها من المائدة مكان الطبق ، وصفّ على حافة المائدة أكواب الشاى ، وأخذ مجلسه ينتظر أن يغلى الماء ، وأخذ الشبان يتحدثون حديثاً هادئاً فاتراً يضطرهم إلى هدوئه وفتوره اشتغال بطونهم بما ألقوا فيها من الجامد والسائل ، ومن البارد والحار . ولكن ماذا ؟ لقد خفتت الأصوات ثم سكتت ، ثم ملأ الغرفة صمت رهيب ، ثم تردد فيها صوت ضئيل جدًّا ، نحيل جدًّا ، متقطع أول الأمر ، متصل بعد ذلك .

وإذا هؤلاء الشبان قد تحركوا حركة الطرب ، ثم انفتحت أفواههم فى وقت واحد عن كلمة واحدة يقولونها فى صوت هادئ متصل مستقر وهى « الله » يمدّون بها أصواتهم مدًّا كأنما أشاعت الطرب فى نفوسهم موسيقى حلوة تأتيهم من بعيد . ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد سمعوا أزيز الماء وهو يدور من حول هذا الموقد الذى تضطرم فيه تلك الجذوة الهادئة الصافية . وقد فرغ لأداة الشاى صاحب الشاى ،

فجعل يتبعها بقلبه وعينه وأذنه ، حتى إذا استحال أزيز الماء غلياناً أخذ هو إبريقاً من الخزف فقرّبه من هذه الأداة وأدار مفتاحها فى رفق ، فجرى فى الإبريق بعض هذا الماء الذى يغلى ويضطرب ، ثم أدار المفتاح فانقطع جريان الماء ، ثم رد على الإبريق غطاءه ، ثم هزه هزًّا رفيقاً ليبلغ ما فيه من الماء السخن أجزاءه كلها ، ثم قام فألقى ما فى الإبريق بعد تدفئته ؛ فما ينبغى أن يجد الشاى برد الخزف أو برد المعدن لأن ذلك يفسده . ثم انتظر بهذا الشاى ثوانى ، ثم صب عليه الماء فى رفق دون أن يملأ الإبريق إلى غايته ، ثم انتظر به قليلا ، ثم عمد إلى علبة الشاى الأحمر فأخذ منه مقداراً ووضعه فى الإبريق ، ثم صب الماء فى الإبريق حتى يمتلئ ، ثم رفع الإبريق فى تلطف ورفق فوضعه على النار ثوانى ، ثم حطه عنها ، ثم أهاب بأصحابه أن قدموا أكوابكم .

كان ذلك يجرى والقوم سكوت ، ينظرون ويتبعون حركات صاحبهم مراقبين لها حراصاً على ألا ينحرف فى بعضها عن الجادّة . فإذا ملئت الأكواب وأديرت فيها الملاعق الصغار ، فسمع لها صوت منسجم لا يخلو من جمال حسن الموقع فى الأذن يأتى من هذه المداعبة الخفيفة الحادثة بين المعدن والزجاج ، رفع القوم أكوابهم إلى أفواههم ، فجرّوا الشاى منها بشفاههم جرًّا طويلا يسمع له صوت منكر يناقض صوت الملاعق حين كانت تداعب الأكواب . ومضوا فى شربهم لا يكادون ينطقون إلا بهذه

الجملة التى لم تكن تتغير ، ولم يكن بد من أن ينطق أحدهم بها ويقره عليها الآخرون : « هذا هو الذى سيطفئ نار الفول » .
فإذا فرغوا من هذه الدورة الأولى ملئت لهم الأكواب مرة أخرى ، وقد أعيد إلى أداة الشاى ما فقدت من ماء ، ولكن القوم ينصرفون الآن إلى شايهم عن هذا الماء المسكين الذى ترسل النار عليه حرارتها فيئن ثم يتغنى شاكياً ، ثم يجهش بالغليان باكياً .
ولكن القوم لا يحفلون به ولا يطربون لغنائه ولا لبكائه ، قد شغلوا عنه بالشاى وبدورته الثانية خاصة ؛ فقد كانت الدورة الأولى مطفئة لنار الفول ، فأما الدورة الثانية فقد جعلت تخلص لهم ولأعصابهم ، وجعلوا يجدون لها بعض اللذة فى أفواههم وحلوقهم ورءوسهم أيضاً . حتى إذا فرغوا من هذه الدورة ثابوا إلى عقولهم أو ثابت عقولهم إليهم ، فهذه ألسنتهم تتحرك ، وهذه شفاههم تبتسم وهذه أصواتهم ترتفع . ولكنهم لا يتحدثون الآن عن طعام ولا عن شراب ، لقد نسوا الطعام والشراب وذكروا أنفسهم . لقد فرغوا من بطونهم والتفتوا إلى عقولهم ، فهم يستعيدون ما سمعوا من الشيخ فى درس الفجر ، وهم يستعيدون ما سمعوا من الشيخ فى درس الصبح ، وهم يسخرون من هذا مرة ومن ذاك أخرى ، وهم يعيدون اعتراض أحدهم على هذا الشيخ أو ذاك ، أو اعتراض غيرهم على هذا الشيخ أو ذاك ، وهم يجادلون فى هذا الاعتراض، يراه بعضهم قوياً مفحماً ، ويراه بعضهم سخيفاً لا يغنى شيئاً . وقد أخذ أحدهم مكان الشيخ

المقرر ، وأخذ أحدهم مكان الطالب المعترض ، وأقام سائرهم حكماً فى هذه المناظرة ، وربما تدخّل الحَكَمُ فى المناظرة بين حين وحين يرد أحد المتناظرين إلى القصد إن جار عنه ، أو يؤيد أحد المتناظرين بحجة قد أهملها أو دليل قد ندّ عنه . وصاحب الشاى مشترك فى هذا كله ، ولكنه فى الوقت نفسه ملتفت إلى الشاى لا يهمله ولا ينساه ؛ فقد أضاف إلى الإبريق شاياً على شاى وماء على ماء ، وقد فرغت الأكواب ثم امتلأت ؛ فالشاى لا يتم إلا بالدورة الثالثة : لأن نصاب الشاى ثلاثة أقداح لا ينبغى أن ينقص ، ولا بأس بأن يزيد .

والصبى مطرق منحن فى مكانه ، يقدَّم له نصيبه من الشاى فى صمت ، فيشربه مترفقاً فى صمت أيضاً . وهو يلحظ ما يجرى حوله ، ويسمع ما يقال حوله ، فيفهم منه قليلا ويعجزه أكثره عن الفهم ، ولكنه يُعجَب بما فهم وبما لم يفهم ويسأل نفسه متحرقاً متى يستطيع أن يقول كما يقول هؤلاء الشباب ، وأن يجادل كما يجادلون .

وقد مضت ساعة أو نحو ساعة ، واستوفى القوم نصيبهم من الشاى . ولكن المائدة ستبقى حيث هى ، وستبقى أداة الشاى فى وسطها والأكواب مصطفة على حافتها ؛ فقد قربت الظهر ولا بد من أن يتفرق القوم ليلقى كل منهم نظرة سريعة على درس الظهر قبل أن يذهبوا لاستماعه وهم قد أعدوه معاً منذ أمس . ولكن لا بأس من المراجعة السريعة ، ومن الوقوف عند هذه القولة أو تلك ، فهى

لا تخلو من غموض أو التواء ، ومع ذلك فالمتن واضح والشرح جلى . ولكن «البنّان» يصعّب السهل ويعقّد المنحلّ . والسيد الجرجانى نافذ البصيرة يستخرج من الأشياء الواضحة أسراراً غامضة . فأما عبد الحكيم فيفهم حيناً وتلتوى عليه الأمور أحياناً . فأما المقرر فجاهل لا يدرى ما يقول . ولم يبق على الظهر إلا دقائق . فلنسرع إذن إلى الأزهر ، فسيدعو المؤذّنون إلى الصلاة ، وستقام الصلاة ، ونحن فى الطريق ، حتى إذا بلغنا الأزهر كان المصلون قد فرغوا من صلاتهم وأخذ الطلاب يتحلّقون حول شيوخهم ، ولا بأس إن فاتتنا صلاة الجماعة فسنقيم الصلاة بعد الدرس، وسنقيمها جماعة أيضاً . والخير ألا تؤدى الصلاة قبل الدرس ؛ فإن النفس تشغل عن العبادة بهذا الدرس وما فيه من صعوبة ومن مشكلات تحتاج إلى الحل . فإذا ألقى الدرس وسمعناه وجادلنا فيه وشفينا نفوسنا من مشكلاته ومعضلاته ، فرغنا للصلاة فأديناها وقد خلصت لها النفوس والقلوب .

وهذا أخو الصبى يدعوه بهذه الجملة التى ما زال يدعوه بها أعواماً وأعواماً : « يا الله يا مولانا » ، فينهض الصبى متثاقلا فيمضى مع أخيه متعثراً حتى يبلغ الأزهر ، فيجلسه أخوه فى مكانه من حلقة النحو ، ويمضى هو إلى درس الشيخ الصالحى فى زاوية العميان .

وقد سمع الصبى درس النحو ففهمه فى غير جهد ، وطال عليه إلحاح الشيخ فى الإعادة والتفسير . ثم انقضى الدرس وتفرّق الطلاب ،

٣١

وظل الصبي في مكانه حتى يعود أخوه فيجذبه في غير كلام وفي غير رفق ، ويمضي به حتى يخرجه من الأزهر وحتى يقطع به الطريق التي قطعها به في الصباح والضحى ، وحتى يلقيه في مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم قد بسط على حصير بال عتيق . ومنذ ذلك الوقت يتهيأ الصبي لاستقبال حظه من العذاب .

٥

وكانت الوحدة المتصلة مصدر ذلك العذاب ؛ فقد كان الصبي يستقر فى مجلسه من الغرفة قبيل العصر بقليل ، ثم ينصرف عنه أخوه فيذهب إلى غرفة أخرى من غرفات « الربع » عند أحد أصحابه .

وكان مجلس الجماعة لا يستقر فى غرفة بعينها من غرفاتهم ، وإنما هو عند أحدهم إذا أصبحوا ، وعند ثان منهم إذا أمسوا ، وعند ثالث منهم إذا تقدم الليل . وكان أخو الصبي يتركه فى غرفته بعد درس الظهر ويذهب إلى حيث يلقى أصحابه فى إحدى الغرفات ، فينفقون وقتاً طويلا أو قصيراً فى شيء من الراحة والدعابة والتندر بالشيوخ والطلاب . وكانت أصواتهم ترتفع وضحكاتهم تدوى فى « الربع » تدوية فتبلغ الصبي وهو جاثم فى مكانه ، فتبتسم لها شفتاه ويحزن لها قلبه ؛ لأنه لا يسمع كما كان يسمع فى الضحى ما أثارها من فكاهة أو نادرة ، ولأنه لا يستطيع كما كان يستطيع فى الضحى أن يشارك صامتاً بابتسامة نحيلة ضيقة فى هذا الضحك الغليظ العريض .

وكان الصبي يعلم أن القوم سيجتمعون حول شاى العصر إذا أرضوا حاجتهم إلى الراحة وإلى التندر بالشيوخ والزملاء ، وسيستأنفون حول هذا الشاى حديثاً هادئاً منتظماً ، ثم يستعيدون ما يرون أن

يستعيدوه من درس الظهر مجادلين مناظرين ، ثم يعيدون درس المساء الذى يلقيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى كتاب دلائل الإعجاز فى بعض أيام الأسبوع وفى تفسير القرآن الكريم فى بعضها الآخر . وسيتحدثون أثناء إعدادهم لهذا الدرس عن الأستاذ الإمام ، وسيستعيدون ما كانوا يسمعون من نوادره وما كانوا يحفظون من رأيه فى الشيوخ ومن رأى الشيوخ فيه ، وما كانوا يحفظون من أجوبته التى كان يلقيها لبعض السائلين له والمعترضين عليه فيفحمهم ويُضحك منهم زملاءهم الطلاب .

وكان الصبى لهذا كله محبًّا وبه كلفاً وإليه مشوقاً متحرقاً . وربما أحس الصبى فى دخيلة نفسه الحاجة إلى كوب من أكواب الشاى تلك التى تدار هناك . فقد كان هو أيضاً قد كلف بالشاى وشعر بالحاجة إلى أن يشربه مصبحاً وممسياً ، وإلى أن يستكمل منه النصاب . ولكنه حرم هذا كله ؛ فهؤلاء القوم يتندّرون ويتناظرون ويدرسون ويشربون الشاى غير بعيد ، وهو لا يستطيع أن يشارك فى شىء من هذا ، ولا يستطيع أن يطلب إلى أخيه الإذن له بأن يحضر مجلس هؤلاء الشباب ، ويستمتع بما فيه من لذة العقل والجسم معاً .

لا يستطيع أن يطلب ذلك ؛ فأبغض شىء إليه أن يطلب إلى أحد شيئاً . ولو قد طلب ذلك إلى أخيه لرده عنه ردًّا رفيقاً أو عنيفاً ، ولكنه مؤلم له ، مؤذ لنفسه على كل حال . فالخير فى

أن يملك على نفسه أمرها ، ويكتم حاجة عقله إلى العلم ، وحاجة أذنه إلى الحديث ، وحاجة جسمه إلى الشاى ، ويظل قابعاً فى مجلسه مطرقاً مغرقاً فى تفكيره . ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد ترك أخوه باب الغرفة مفتوحاً إلى أقصى غايته ، وهذه أصوات القوم تبلغه ، وهذه ضحكاتهم تصل إليه ، وهذه دقات مصمتة تنتهى إليه فتؤذنه بأن صاحب الشاى يحطم الخشب ليوقد النار . وكل هذه الأصوات التى تنتهى إليه تثير فى نفسه من الرغبة والرهبة . ومن الأمل واليأس ، ما يعنّيه ويضنيه ، ويملأ قلبه بؤساً وحزناً ، ويزيد فى بؤسه وحزنه أنه لا يستطيع حتى أن يتحرك من مجلسه ، وأن يخطو هذه الخطوات القليلة التى تمكنه من أن يبلغ باب الغرفة ويقف أمامه حيث يكون أدنى إلى هذه الأصوات ، وأجدر أن يسمع ما تحمله مما يتحدث به القوم . لقد كان ذلك خليقاً أن يسره ويُسليه ، ولكنه لا يستطيع أن ينتقل من مكانه ، لا لأنه يجهل الطريق إلى الباب ، فقد كان حفظ هذه الطريق ، وكان يستطيع أن يقطعها متمهلاً مستأنياً ، ولكن لأنه كان يستحيي أن يفاجأه أحد المارة فيراه وهو يسعى متمهلا مضطرب الخطى . وكان يشفق أن يفجأه أخوه الذى كان يلمّ بالغرفة من حين إلى حين ليأخذ كتاباً أو أداة أو لوناً من ألوان الطعام التى كانت تدخر ليتبلّغ بها أثناء الشاى فى غير أوقات الإفطار أو العشاء .

وكان كل شىء أهون على الصبى من أن يفجأه أخوه وهو

يسعى مضطرباً حائراً : فيسأله : ما خطبك ؟ وإلى أين تريد ؟ فكان إذن يرى الخير كل الخير فى أن يبقى فى مكانه ويؤثر العافية ، ويردد فى نفسه تلك الحسرات اللاذعة التى كان يجدها ، وحسرات أخرى لم تكن أقل منها لذعاً وإيلاماً ، حسرات الحنين إلى منزله ذلك ، فى قريته تلك من قرى الريف . هنالك حين كان يعود من الكُتَّاب وقد أرضى حاجته إلى اللعب ، فيتبلغ بكسرة من الخبز المجفف مازحاً مع أخواته قاصًّا على أمه ما أحب أن يقص عليها من أنباء يومه فى الكتّاب . فإذا بلغ من ذلك ما أراد خرج من الدار فأغلق الباب وراءه ، ثم مضى حتى يبلغ جدران البيت الذى كان يقوم أمامه فلزمه ماضياً نحو الجنوب ، حتى إذا بلغ مكاناً بعينه انحرف إلى يمين ، ثم مضى أمامه خطوات حتى ينتهى إلى حانوت الشيخ محمد عبد الواحد وأخيه الشاب الحاج محمود ، فجلس هناك متحدثاً متندراً مستمعاً لما كان يقوله المشترون من الرجال والمشتريات من النساء من هذه الأحاديث الريفية الساذجة التى تمتع باختلافها وطرافتها وسذاجتها أيضاً .

وربما قل الطارئون على الحانوت من المشترين والمشتريات ، فخلا للصبى أحد صاحبى الحانوت ، وجعل يتحدث إليه أو يقرأ له فى كتاب من الكتب . وربما عدل الصبى عن السعى إلى الحانوت وخرج من داره فجلس على المصطبة الملاصقة لها مطرقاً يسمع حديث أبيه الشيخ مع أصحابه فى مجلسهم ذاك الذى كانوا يعقدونه منذ تصلّى

العصر إلى أن يدعوهم مؤذن المغرب إلى العشاء .

وربما عدل الصبي عن الخروج من داره وخلا إلى رفيق من رفاقه فى الكتاب ، قد أقبل عليه ومعه هذا الكتاب أو ذاك من كتب الوعظ ، وهذه القصة أو تلك من قصص المغازى ، فجعل يقرأ له حتّى يدعوه غروب الشمس إلى العشاء . هنالك لم يكن الصبي يشعر بالوحدة ، ولم يكن يضطر إلى السكون ، ولم يكن يجد ألم الجوع ، ولم يكن يجد ألم الحرمان ، ولم يكن يتحرق إلى كوب من أكواب الشاى .

كانت كل هذه الحسرات تضطرب فى نفس الصبي أشد الاضطراب وهو ساكن أشد السكون . وربما صرفه عنها لحظة صوت المؤذن حين كان يدعو إلى صلاة العصر فى جامع بيبرس ، ولكنه كان صوتاً منكراً أشد النُّكر ، فكان يذكِّر الصبي بصوت المؤذن فى بلده ، ولم يكن خيراً من هذا الصوت ولكنه كثيراً ما أتاح للصبي ألواناً من اللهو واللعب . فكم صعد المنارة مع المؤذن ، وكم أذَّن مكانه وكم شاركه فى هذا الدعاء الذى يدعى به بعد الأذان ! ولكنه هنا فى هذه الغرفة لا يستحب هذا الصوت ، ولا يستطيع أن يشارك فى الأذان ، ولا يعرف حتّى من أين يأتى هذا الصوت ، وهو لم يدخل قط مسجد بيبرس ، وهو لا يعرف الطريق إلى مئذنته ، وهو لم يَسْبُلْ درج هذه المئذنة ، ولم يعرف أتستقيم للمصعد فيها وتتسع له أم تلتوى به وتضيق عليه كشأن مئذنته فى الريف .

لا يعرف شيئاً من ذلك ولا سبيل إلى أن يعرف منه شيئاً ، إنما هو السكون ،، والسكون المتصل الطويل . يا للألم ! إن العلم ليكلف طُلاَّبه أهوالا ثقالا .

وكان هذا السكون يطول على الصبي فيجهده ، وربما أخذته إغفاءة وهو جالس فى مكانه ، وربما اشتدت عليه هذه الإغفاءة فاضطرته إلى أن يستلقى ويسلِّم نفسه للنوم . وكان يسمع من أمه أن نوم العصر بغيض مؤذ للأجسام والنفوس . ولكن كيف السبيل إلى أن يرد عن نفسه هذا النوم البغيض ! ولكنه يهبّ فزعاً مذعوراً ؛ فقد سمع صوتاً يدعوه بهذه الكلمة التى رنت فى آذانه أعواماً وأعواماً : « مولانا أنائم أنت ؟ » . يهب فزعاً مذعوراً لأن أخاه أقبل ينظر إليه ويسأله عن شأنه ويحمل إليه عشاءه . وكان عشاؤه لذيذاً حقًّا ؛ فقد كان يتألف من رغيف وقطعة من الجبن الذى يسمى الجبن الرومى ، أو قطعة من الحلاوة الطحينية . كان هذا عشاءه فى أثناء الأسبوع ، فكان أخوه يضع ذلك أمامه ويودعه منصرفاً عنه ليذهب إلى الأزهر فيحضر درس الأستاذ الإمام .

وكان الصبي يُقبل على طعامه راغباً عنه حيناً وراغباً فيه حيناً آخر ، ولكنه كان يستنفده على كل حال . كان يبيح لنفسه الإقلال من الطعام إذا أكل مع أخيه ، ولم يكن أخوه يكلمه فى ذلك أو يسأله عنه . فأما إذا خلا إلى طعامه فقد كان يأتى عليه كله

حتى ولو رغب عنه أو ضاق به مخافة أن يبقى منه شيئاً . ويعود أخوه ويرى ذلك فيظن به المرض أو يظن به الحزن . وكان أبغض شيء إليه أن يثير فى نفس أخيه همًّا أو قلقاً .

كان إذن يقبل على طعامه ، حتى إذا فرغ منه عاد إلى سكونه وجموده فى ركنه الذى اضطر إليه ، وقد أخذ النهار يتصرَّم وأخذت الشمس تنحدر إلى مغربها ، وأخذ يتسرب إلى نفسه شعور شاحب هادئ حزين ، ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة ، فيعرف الصبى أن الليل قد أقبل . ويقدر فى نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه ، ويقدر فى نفسه أن لو كان معه فى الغرفة بعض المبصرين لأضىء المصباح ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة ، ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون ، وإن كان ليراهم مخطئين فى هذا الظن ؛ فقد كان ذلك الوقت يفرِّق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور . وكان يجد فى المصباح إذا أضىء جليساً له ومؤنساً ، وكان يجد فى الظلمة وحشة لعلها كانت تأتيه من عقله الناشئ ومن حسه المضطرب . والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه ، صوتاً متصلا يشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ . وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيهما ، ويبلغ قلبه فيملؤه روعاً ، وإذا هو مضطر إلى أن يغير جلسته فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويخفى رأسه بين يديه ، ويسلِّم نفسه لهذا الصوت الذى يأخذه من كل مكان . ومع أن سكون

العصر كان كثيراً ما يضطره إلى النوم فقد كان سكون العشية يضطره إلى اليقظة التى لا تشبهها يقظة .

وكان ينتهى إلى أن يألف صوت الظلمة ويطمئن إليه . ولكن فى الغرفة أصواتاً أخرى كانت تُفزعه وتروعه . أصوات مختلفة ؛ فقد كانت هذه الغرفة من غرفات الأوقاف . ومعنى ذلك أنها كانت قديمة ، قد طال عليها العهد ، وبعد بها الأمد ، وكثرت فى جدرانها الشقوق ، وعمرت هذه الشقوق طوائف من الحشرات وغيرها من صغار الحيوان . وكانت هذه الحشرات وهذه الصغار من الحيوان كأنما ُوكِّلت بالصبى إذا أقبل الليل عليه وهو قابع وحده فى ذلك الركن من أركان الغرفة ؛ فهى تبعث من الأصوات الضئيلة . وتأتى من الحركات الخفيفة السريعة حيناً والبطيئة حيناً آخر ما يملأ قلب الصبى هلعاً ورعباً . فإذا أقبل أخوه وحده أو مع أصحابه فأضىء المصباح انقطعت هذه الأصوات والحركات كأنها لم تكن . وكان الصبى من أجل هذا ومن أجل أشياء أخرى غير هذا لا يجرؤ على أن يذكر من أمر هذه الأصوات والحركات شيئاً . وأيسر ما كان يخاف إن تحدَّث ببعض ذلك أن يسفّه رأيه وأن تظن بعقله وبشجاعته الظنون . فكان يؤثر العافية ويكظم خوفه من الحشرات وصغار الحيوان .

وهذا المؤذن يدعو إلى صلاة العشاء ، فيثير فى نفس الصبى أملا قصيراً يتبعه يأس طويل ؛ فقد انتهى درس الأستاذ الإمام ،

وسيقبل أخو الصبي بعد قليل فيضيء المصباح ويضع محفظته فى مكانها ، ويأخذ ما يحتاج إليه من كتاب أو أداة أو طعام ، ويشيع فى الغرفة فى أثناء ذلك شيئاً من الأنس ، ويطرد من الغرفة فى أثناء ذلك تلك الوحدة المنكرة ، ولكنه سيلقى إلى الصبي تلك الوسادة التى سيضع عليها رأسه ، وذلك اللحاف الذى سيلتف فيه لينام ، وسيشهد التفافه فى لحافه ووَضْعَ رأسه على وسادته ، ثم يطفئ المصباح وينصرف ، ويغلق الباب من ورائه ويدير فيه المفتاح ، ويمضى وهو يظن أنه أسلم الصبي إلى النوم وإن كان لم يسلمه إلا إلى أرق متصل مخيف .

وسيعود بعد ساعتين أو بعد ساعات ، وقد طعم وشرب الشاى ، وناظر أصحابه وأعد معهم ما شاء الله أن يعد من درس للغد ، فيدير المفتاح ثم يضيء المصباح ، وهو يظن أن الصبي مغرق فى نوم هادئ لذيذ ، وما ذاق الصبي فى حقيقة الأمر نوماً ، وإنما انتظر جَزِعاً فَزِعاً عودة أخيه .

فإذا استلقى أخوه على فراشه بعد أن أطفأ مصباحه وأخذ تنفسه المضطرب أو المنتظم يدل على أنه نام ، فقد أخذ الصبي يحس الأمن والدعة ، ويدير فى نفسه خواطر الأمن الوادع وتفكير الهادئ المطمئن .

وهنالك تتصل يقظته الآمنة بنومه اللذيذ دون أن يشعر بهذا الاتصال .

٦

ولكن صوتين غريبين يردّانه فجأة إلى يقظة فزعة : أحدهما صوت عصاً غليظة تضرب الأرض ضرباً عنيفاً ، والآخر صوت إنسانى متهدج مضطرب لا هو بالغليظ ولا هو بالنحيف ، يذكر الله ويسبح بحمده ، ويمد ذكره وتسبيحه مدًّا طويلا غريباً . وقد سكن كل شيء وشمل هدوء الليل كل شيء ، وجعل هذا الصوت الإنسانى ينبعث بين حين وحين متهدجاً مرجّعاً ، تقطعه ضربات العصا على الأرض ، وهو يبدو قويا فيذيع فى الليل الهادئ شيئاً يشبه الاضطراب ، ثم يدنو قليلا قليلا حتى يكاد يبلغ غرفة الصبى ، ثم ينحرف ويضعف شيئاً فشيئاً حتى يكاد ينقطع ، ثم يبدو مرة أخرى قويًّا متصلا بعد أن هبط صاحبه سلم « الربع » واستقامت له طريقه فى الحارة ، ثم يبعد شيئاً فشيئاً حتى ينقطع .

وقد ارتاع الصبى لهذا الصوت أو لهذين الصوتين حين سمعهما لأول مرة ، وأتعب نفسه فى التفكير فيهما والبحث عن مصدرهما ، ولكنه لم يظفر من بحثه بطائل ، إلا أنه فقد النوم وأتم ليله مؤرقاً مروّعاً حتى رد الأمن والطمأنينة إلى قلبه صوت المؤذن وهو ينادى : « الصلاة خير من النوم » . فهب الصبى مترفقاً ، وهب أخوه عنيفاً عجلا ، وما هى إلا دقائق حتى كانا يهبطان السلم ويجدّان

فى طريقهما إلى الأزهر ، ليسمع أحدهما درس الأصول ، وليسمع الآخر درس الحديث .

وجعل هذان الصوتان يوقظان الصبى كل يوم فى أول الثلث الأخير من الليل ، وجعل الصبى يراع لهذين الصوتين ولا يعرف لهما مصدراً ، ولا يجرؤ على أن يسأل أخاه أو غير أخيه عنهما . حتى كانت ليلة الجمعة ، فأيقظه الصوتان وروّعاه كدأبهما فى كل ليلة ، ورد المؤذن إليه الأمن والهدوء كدأبه فى كل صباح ، ولكن الصبى لم يهب مترفقاً ، ولكن أخاه لم يهب عجلا عنيفاً ؛ فليس فى فجر الجمعة ولا فى صباحه دروس ، وليس الشيخ الفتى ولا الشيخ الصبى فى حاجة إلى أن يقطعا نومهما .

فأما نوم الصبى فقد قطعه هذان الصوتان . وأما أخوه فلم يسمعهما هذه الليلة كما لم يسمعهما من قبل . ولبث الصبى فى فراشه ضيقاً بهذا السكون ، عاجزاً عن الحركة ، مشفقاً أن يوقظ أخاه ، حتى صلّيت الفجر وانتشر ضوء الشمس ونفذت أشعتها إلى الغرفة فاترة ، وإذا الصبى يسمع هذين الصوتين مرة أخرى ولكنه يسمعهما هادئين رفيقين . فأما العصا فتداعب الأرض مداعبة يسيرة ، وأما الصوت فيصافح الهواء مصافحة حلوة لا تخلو من فتور . والصبى يعجب لهذين الصوتين اللذين يعنفان حين يسكن الليل وينام الناس ويحسن الرفق ، واللذين يرقان ويلطفان حين ينشط النهار ويستيقظ الناس ويتاح للأصوات أن ترتفع

وأن تأخذ حظها من الحرية والنشاط . وهو مع ذلك مضطر إلى سكونه ، مشفق إن تحرك أن ينبه أخاه ، حتى تشتد حرارة الشمس على رأسه فيستوى جالساً فى أناة ، ويتزحزح من مكانه فى رفق حتى يبلغ مكاناً لا تلفحه حرارة الشمس فيستقر فيه دون أن يتحرك .

وهو بهذا ضيق ، وله كاره ، وعليه مكره ، وأخوه مغرق فى نومه لا يفيق ، ولكن الباب يطرق طرقاً عنيفاً وصوت من ورائه ينادى مرتفعاً ساخطاً صاخباً : « هلم يا هؤلاء ، هلم يا بهائم ، أفيقوا إلى متى تنامون ! أعوذ بالله من الكفر ، أعوذ بالله من الضلال ! طلاب علم ينامون حتى يرتفع الضحى لا يؤدون الصلاة لوقتها ، هلم يا هؤلاء ! هلم يا بهائم ، أعوذ بالله من الكفر ، أعوذ بالله من الضلال ! » .

ويد هذا الصوت تقرع الباب وعصاه تقرع الأرض ، ومن حوله ضحكات ترافقه . وقد هب الشيخ الفتى لأول نبأة ، ولكنه ظل فى مكانه ساكناً ثابتاً يُغرق فى ضحك مكتوم مكظوم كأنه يستحب ما يسمع ويستزيد منه ويريد أن يتصل . فأما الصبى فقد عرف هذا الصوت وهذه العصا . إنه صوت الذى كان يضطرب فى الليل ، وإنها العصا التى كانت تقرع الأرض لتوقظها من نومها . من عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وما عسى أن تكون عصاه ؟ وما هذا الضحك الذى يتبعه ؟ وقد نهض الفتى جاهراً بضحكه

فسعى إلى الباب ففتحه ، واندفع منه هذا الرجل صاخباً : « أعوذ بالله من الكفر ! أعوذ بالله من الضلال ! اللهم اصرف عنا الأذى . أعذنا من الشيطان الرجيم ، أناس أنتم أم بهائم ! أمسلمون أنتم أم كفار ، أتتعلمون على شيوخكم هدى أم ضلالا ! » .

وقد اندفع معه الشباب من أصحاب الفتى وهم يجأرون بالضحك ويغرقون فيه . وهنالك عرف الصبي هذا الرجل ، وهو عمّي الحاج علي.

وكان عمّي الحاج علي رجلا شيخاً قد تقدمت به السن حتى جاوز السبعين ، ولكنه احتفظ بقوته كلها : احتفظ بقوة عقله فهو ماكر ماهر ظريف لبق ، واحتفظ بقوة جسمه فهو معتدل القامة ، شديد النشاط ، متين البنية ، عنيف إذا تحرك ، عنيف إذا تكلم ، لا يعرف الهمس ، ولا يحسن أن يخافت صوته ، وإنما هو صائح دائماً . وكان عمّي الحاج علي فيما مضى من دهره — كما علم الصبي فيما بعد — رجلا تاجراً ، قد ولد في الإسكندرية وشب فيها ، واحتفظ بما لأهل الإسكندرية من قوة وعنف ، ومن صراحة وظرف . وكان يتجر في الأرز ، ومن أجل ذلك سمي عمي الحاج علي الرزاز . فلما تقدمت به السن أعرض عن التجارة أو أعرضت التجارة عنه . وكان له بيت في القاهرة يغل عليه شيئاً من مال ، فاتخذ لنفسه غرفة في هذا الربع الذي لم يكن يسكنه من غير المجاورين إلا هذا الرجل وهذان الفارسيان اللذان ذكرا في بعض هذا الحديث .

ولم يكد عمى الحاج على يستقر فى غرفته فى آخر الربع عن شمال إذا صعدت السلّم حتى لفت إليه هؤلاء الشباب من طلاب العلم ، أضحكهم وراقوه ، فاتصلت بينه وبينهم مودة حلوة متينة نقية ، فيها ظرف كثير ، وفيها رقة وتحفظ يؤثران فى القلوب حقاً . فقد كان هذا الشيخ يعرف من هؤلاء الشباب حبهم للعلم ، وجِدّهم فى الدرس ، وصدوفهم عن العبث ، وكان يحب منهم ذلك . فإذا بدأ أسبوع العمل لم يسع إليهم ، ولم يعرض لهم ، حتى كأنه لا يعرفهم إلا أن يسعوا هم إليه ، أو يلحوا هم عليه فى أن يشهد معهم طعاماً أو يشاركهم فى الشاى . فإذا كان يوم الجمعة لم يمهلهم ولم يخل بينهم وبين أنفسهم ، وإنما انتظر بهم حتى يتقدم النهار ، وحتى يعلم أنهم قد أرضوا نفوسهم من النوم والراحة . هنالك يخرج من غرفته فيبدأ بأقرب غرف هؤلاء الشباب إليه ، فيوقظ صاحبها فى هذا العنف والضجيج اللذين رأيتهما ، ثم ينتقل إلى الغرفة التى تليها ومعه صاحبه الذى أيقظه ، وما يزال كذلك حتى يبلغ غرفة أخى الصبى فيوقظه على هذا النحو والشباب من حوله فرحون مرحون ، يستقبلون يوم راحتهم مبتهجين ، قد ابتسموا للحياة وابتسمت لهم الحياة .

وإلى هذا الشيخ كان تدبير طعامهم ولهوهم البرىء فى يوم الجمعة ؛ فهو الذى يقترح عليهم طعام الإفطار وقد يعده لهم فى غرفته أو فى غرفة أحدهم . وهو الذى يقترح عليهم طعام

العشاء ، ويشير عليهم بما ينبغي أن يصنعوا لإعداده ، ويشرف على هذا الإعداد ، ويقوِّم منه ما يمكن أن يعوج ، يصحبهم صباحهم ، ثم يفارقهم ليصلى الجمعة ، ثم يصحبهم ، حتى إذا وجبت العصر فارقهم لحظة ، ثم يعود إليهم فيشاركهم فى عشائهم وفيما يكون بعده من الشاى ، ثم إذا وجبت المغرب أمهم فى صلاتهم ، فإذا وجبت العشاء فارقهم ليعدُّوا الدروس التى سيسمعونها من الغد .

وكان عمى الحاج على يتكلف التقوى والورع ، ويظهر ذلك إلى أقصى ما يظهر الناس تكلفهم وتصنعهم . يبدأ بهذه الغزوة التى يجددها فى الثلث الأخير من كل ليلة ، فيخرج من غرفته صاخباً صائحاً بذكر الله والتسبيح بحمده ، ضارباً الأرض بعصاه حتى يبلغ مسجد سيدنا الحسين ، فيقرأ فيه ورد السحر ، ويشهد فيه صلاة الفجر ، ثم يعود متمتماً مهمهماً مداعباً الأرض بعصاه فيستريح فى غرفته . فإذا وجبت الصلوات أداها فى غرفته وقد فتح بابها وجهر بالقراءة والتكبير ليسمعه أهل الربع جميعاً ، فإذا خلا إلى أصحابه الشباب على طعامهم أو على شايهم أو فى بعض سمرهم ، فهو أسرع الناس خاطراً ، وأظرفهم نكتة ، وأطولهم لساناً ، وأخفهم دعابة ، وأشدهم تتبعاً لعيوب الناس ، وأعظمهم إغراقاً فى الغيبة ، لا يتحفظ فى لفظ ، ولا يتحرج من كلمة نابية ، ولا يتردد فى أن يُجرى على لسانه المنطلق دائماً وبصوته المرتفع دائماً أشنع

الألفاظ ، وأشدها إغراقاً فى البذاء ، وأدلها على أبشع المعانى وأقبح الصور .

وكان أولئك الشباب يحبونه على ذلك ، أو يحبونه من أجل ذلك ، أو قل إنهم يحبون ذلك منه أشد الحب ، ويكلفون به أعظم الكلف ، كأنه كان يخرجهم من أطوارهم ، ويريحهم من جد العلم والدرس ، ويفتح لهم باباً من اللهو ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يخلون إلى أنفسهم ، بل ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يلتفون حول هذا الرجل الشيخ ، وحين كان يصب عليهم هراءه هذا بغير حساب . كانوا يسمعون ذلك منه ويضحكون له ، حتى إن جنوبهم لتكاد تنقد من الضحك ، ولكنهم على ذلك لم يكونوا يعيدون على الشيخ كلمة من كلماته البذيئة أو لفظاً من ألفاظه النابية ، فكأنما كانوا يرون شيئاً يعجبهم ويلهيهم فيستمتعون به من بعيد ، ولا يبيحون لأنفسهم أو لا تبيح لهم ظروفهم أن يدنوا منه أو يسعوا إليه .

ولم يكن ذلك يدل على أقل من هذه الصفة الغريبة الخليقة بالإعجاب والرحمة معاً ، والتى كان هؤلاء الشبان يمتازون بها من كثير من زملائهم وأقرانهم ، وهى كظم الشهوات وأخذ النفس بألوان من الشدة تمكنهم من المضى فى الدرس على وجهه ، وتردهم عن التورط فيما كان كثير من زملائهم يتورطون فيه من هذا العبث السهل الذى يفل الحد ويفتر العزائم ويفسد الأخلاق .

وكان الصبي يسمع لهذا كله فيفهم ويحفظ ويعجب . ويسأل نفسه : كيف يجتمع طلب العلم وما يحتاج إليه من الجد مع هذا التهالك على الهزل والتساقط على السخف فى غير تحفظ ولا احتياط ؟ ! وكان يعاهد نفسه على أنه إذا شب وبلغ طور هؤلاء الطلاب الذين يُكبرهم ويقدِّر ذكاءهم فلن يسير سيرتهم ولن يتهالك على العبث كما يتهالكون عليه .

وكان يوم الجمعة يوم البطون فى حياة هؤلاء الطلاب وفى حياة صديقهم الشيخ . فكانوا إذا أصبحوا اجتمعوا إلى إفطار غزير دسم صاخب ، قوامه الفول والبيض ثم الشاى ، وما كانوا قد ادّخروا من هذه الفطائر الجافة التى كانت أمهاتهم يزوِّدنهم بها ويضعن فى صنعها وفى تعبئتها قلوبهن الساذجة وما يملؤها من حب وعطف وحنان . وكم ذكر الصبي جهد أبيه فى كسب ما لم يكن بد من كسبه من النقد لتستطيع أمه أن تهيئ لابنها زادهما ، وجِدّ أمه فى صنع هذا الزاد وتكلفها الفرح وهي تهيئه ، وحزنها الصامت وهى تعبئه ، ودموعها المنهمرة وهى تسلّم أحماله إلى من سيذهب به إلى القطار .

كم ذكر الصبي هذا كله حين كان هؤلاء الشباب يلتهمون هذا الزاد التهاماً ، يغمسونه فى الشاى كما كان يوصيهم الشيخ ، أو يقضمونه بأسنانهم وأضراسهم قضما ، ثم يعبون فى أكواب الشاى ليبلّوه فى أفواههم ولتسيغه حلوقهم بعد ذلك سهلاً هيناً ، وهم فى أثناء

ذلك يتضاحكون من دعابة الشيخ وفكاهته ، لا يذكرون آباءهم وما جدّوا ، ولا يذكرون أمهاتهم وما احتملن من كد وما ذرفن من دموع .

وكان الشيخ وأصدقاؤه الطلاب يدبّرون عشاءهم أثناء الدورة الثانية والثالثة من الشاى الذى يقبلون عليه بعد الإفطار . وكان تدبيرهم لهذا العشاء يقبض نفس الصبى ويملؤها خجلا ، فلما فكر فيه بعد أن تقدمت به السن وجد لذكراه حناناً وإعجاباً . كانوا يتداولون ويتشاورون . ولم يكن ميدان مداولاتهم ومشاوراتهم واسعاً ولا عريضاً . وإنما هما لونان من ألوان الطعام لم يشذوا عنهما قط : فإما البطاطس فى خليط من اللحم والطماطم والبصل ، وإما القرع فى خليط من اللحم والطماطم والبصل وشىء من الحمص . وكانوا يتفقون على أقدار ما يشترون من هذه الأصناف كلها ، ثم يقدرون ثمن ما سيشترون ، ثم يخرج كل منهم حصته من هذا الثمن إلا الشيخ فكانوا يخرجونه من هذه الغرامة . فإذا اجتمع لهم ما يحتاجون إليه من نقد ، ذهب أحدهم فاشترى لهم طعامهم . فإذا عاد بما اشترى نهض أحدهم إلى موقده فأوقد فيه ناره من هذا الفحم البلدى ، حتى إذا صفت جذوته أقبل على الطعام يهيئه وأصحابه ينظرون إليه مجتمعين أو متفرقين ، والشيخ يلقى إليه نصائحه بين حين وحين . حتى إذا تم له من تهيئة الطعام ما أراد خلّى بينه وبين هذه النار تنضجه على مهل ، واجتمع

القوم إلى صديقهم الشيخ يعبثون ، أو إلى أنفسهم يدرسون ، وطاهيهم يختطف نفسه بين حين وحين ليلقى نظرة على هذا الطعام مخافة أن يحترق أو يفسد ، وليلقى عليه بين حين وحين قطرات من ماء . وكلهم يتنسم هذه الرائحة الذكية التى تبعثها النار من هذا الطعام كلما تقدمت به إلى الإنضاج ، .وكلهم يجد فى تنسم هذه الرائحة مقدمة لذيذة لعشاء لذيذ . ومن المحقق أنهم لم يكونوا وحدهم يصطنعون هذا الطعام ، وإنما كان لهم فى الربع زملاء يصطنعون مثله ويتنسمون رائحته مثلهم . ومن المحقق أيضاً أن قد كان لهم فى الربع زملاء تقصر بهم ذات أيديهم عن أن يصنعوا لأنفسهم من الطعام مثل ما كانوا يصنعون . ومن المحقق أيضاً أن هؤلاء العمال الذين كانوا يسكنون الدور السفلى من الربع كانت تقصر بهم ذات أيديهم عن أن يُطرفوا أنفسهم وأبناءهم ونساءهم بمثل هذا الطعام . وأكبر الظن أنهم كانوا يجدون من نسائهم لهذا الحرمان همًّا ثقيلا . وأكبر الظن أن هؤلاء المحرومين من الطلاب والعمال كانوا يجدون فى هذه الروائح التى كانت تملأ الربع يوم الجمعة لذة مؤلمة أو ألماً لذيذاً .

وكانت نار هذا الفحم البلدى بطيئة طويلة البال ، فكان ذلك يطيل لذة قوم ويمد ألم آخرين . حتى إذا صلّيت العصر ودعيت الشمس إلى الغروب كان الطعام قد نضج ، فاجتمع القوم حول مائدتهم وأقبلوا على طعامهم فى نشاط يشبه الجد الهازل أو الهزل

الجاد . وكلهم حريص على أن يستوفى حظه من هذا الطعام ، وكلهم يراقب أصحابه أن يسبقوه أو يشتطوا عليه ، وكلهم يستحيي أن يظهر هذا الحرص أو يبدى هذه المراقبة . ولكن الشيخ معهم ، فصراحته تغنى عن صراحتهم ، وهزله يفضح ما أسروا من الجد ، فهو يراقبهم جميعاً ، وهو يقسم الطعام بينهم بالعدل ، وهو يصد أحدهم إن همّ أن يجور على أصحابه ، لا يخفى ذلك ولا يتحفظ فيه ، وإنما يعلنه صاخباً كعادته ، منبهاً هذا إلى أنه يخدع نفسه عن قطعة البطاطس بقطعة اللحم ، ومنبهاً ذاك إلى أنه يسرف على نفسه وعلى أصحابه بما يغترف فى لقمته الغليظة من جامد الطعام أو سائله ، مرسلا ألفاظه إلى هذا وذاك فى هزل يخف على أسماعهم ويحسن موقعه من نفوسهم ، ويضحكهم ، ولا يؤذيهم فيما ينبغى لهم من الحياء .

والصبي فى أثناء هذه المعركة الضاحكة خجل وجل ، مضطرب النفس مضطرب حركة اليد ، لا يحسن أن يقتطع لقمته ، ولا يحسن أن يغمسها فى الطبق ، ولا يحسن أن يبلغ بها فمه . يخيّل إلى نفسه أن عيون القوم جميعاً تلحظه ، وأن عين الشيخ خاصة ترمقه فى خفية ، فيزيده هذا اضطراباً ، وإذا يده ترتعش ، وإذا بالمرق يتقاطر على ثوبه ، وهو يعرف ذلك ويألم له ولا يحسن أن يتقيه . وأكبر الظن بل المحقق أن القوم كانوا فى شغل عنه بأنفسهم . وآية ذلك أنهم يفكرون فيه ويلتفتون إليه ويحرّضونه على أن يأكل ويقدمون إليه ما لا تبلغه يده ، فلا يزيده ذلك إلا اضطراباً

واختلاطاً ، وإذا هذه المعركة الضاحكة مصدر ألم لنفسه وحزن لقلبه ، وكانت خليقة أن تسره وأن تضحكه ، ولكنها إن آذته فى أثناء الطعام فقد كانت تسره وتسليه وتضطره أحياناً إلى أن يضحك وحده إذا خلا إلى نفسه بعد أن يشرب الجماعة شايهم وينتقلوا إلى حيث يدرسون أو يسمرون .

وكذلك أنفق هؤلاء الشباب أعواماً طويلة مع هذا الشيخ . وشبّ الصبى فى هذه الحياة الضاحكة بفضل الشيخ على رغم ما كان يعترض طريقها من أسباب الحزن والألم والأسى .

ثم تفرقت الجماعة ، وذهب كل من هؤلاء الشباب لوجهه ، وتركوا الربع واستقروا فى أطراف متباعدة من المدينة ، وقلّت زيارتهم للشيخ ، ثم انقطعت ، ثم تناسوه ، ثم نسوه .

وفى ذات يوم حمل إلى أفراد هذه الجماعة نعى الشيخ ، فحزنت قلوبهم ولم يبلغ الحزن عيونهم ، ولم يرسم آياته على وجوههم . وأخبر المخبر الصادق أن آخر كلمة نطق بها الشيخ وهو يُحْتَضَرُ إنما كانت دعاءه لأخ الصبى .

فرحم الله عمى الحاج على ! لقد كان ظله على الصبى ثقيلا وإن ذكره ليملأ قلبه بعد ذلك رحمة وحناناً .

٧

ولم يكن هؤلاء الشباب يستمدون فرحهم ومرحهم من ذلك الشيخ وحده ، وإنما كان لفرحهم ومرحهم مصدر آخر فى بعض الأحيان . ولكن فرحهم كان مقتصداً ومرحهم كان هادئاً إذا جاءهم من هذا المصدر الآخر . كانوا يفرحون بمقدار ، ويمرحون من وراء ستار ، إذا لقوا صاحبهم ذاك الذى كان يسكن غرفة فى أقصى الربع من يمين ، كما كان الشيخ فى أقصى الربع من شمال . وكان صاحب الغرفة اليمنى رجلا متوسط السن قد جاوز الأربعين من غير شك ولكنه لم يبلغ الخمسين . وكان طالب علم ، وقد أنفق فى الأزهر أكثر من عشرين سنة ولم يظفر بدرجة العالمية بعدُ ولم يستيئس من الظفر بها ، ولكنه لم يقصر عليها جهده ولم يقف عليها حياته ، وإنما كان يطلبها ويطلب معها أشياء أخرى هى التى يطلبها الناس فى حياتهم . فقد كان له زوج وكان له بنون . وكان يمنح زوجه وأبناءه من وقته إجازة الصيف وإجازة الصوم . وهذه الإجازات القصار التى كانت تتخلل دراسة الأزهريين أحياناً . وكان أهله يقيمون فى القرية قريباً من القاهرة ؛ فلم يكن الانتقال إليهم والارتحال عنهم يكلفان الرجل جهداً ثقيلا أو نقداً كثيراً . وكان ككثير من أهل إقليمه يملك

قطعة أو قطعاً صغيرة من الأرض ، وقد أصهر إلى رجل يملك قطعة أو قطعاً من الأرض أيضاً . فلم يكن فقير الحال كما كان يقال فى ذلك الوقت ، ولكنه لم يكن عظيم اليسار ؛ وكان قبل كل شىء مقتصداً يوشك اقتصاده أن يبلغ البخل .

وكان حبه للعلم معتدلاً . وكانت رغبته فى العلم متواضعة ، وكان إقباله على الدرس ضئيلا جدًّا ، وكان ذكاؤه أضأل من إقباله على الدرس ، واستعداده لفهم العلم أقل من إقباله عليه ، وكان مع ذلك يرى نفسه ذكيًّا ، ويرى نفسه مظلوماً ؛ لا لأنه تقدم لنيل الدرجة فرُدَّ عنها واشتطت عليه اللجنة فى الامتحان ، فقد أنفق فى الأزهر أكثر من عشرين سنة ولم يتقدم للامتحان ، وكان يستطيع أن يتقدم بعد اثنتى عشرة سنة ، ولكنه لم يفعل لأنه كان يرى الأزهر من وراء منظار قاتم أو شاحب .

كان يسىء الظن بالطلاب ، وكان يرى مخطئاً أو مصيباً — وأكبر الظن أنه كان مخطئاً — أن الدرجات لا تنال فى الأزهر بالذكاء والبراعة ، ولا بالجد والتحصيل ، وإنما تنال من جهة بالحظ والمصادفة ، ومن جهة أخرى بالتملق وحسن الحيلة والمهارة فى التوسل إلى الممتحنين . وكان يرى أن الحظ قد ظلمه وتحوّل عنه لسبب مجهول ، وأنه مخفق إن تقدم إلى الامتحان ؛ فالخير فى ألا يتقدم .

وكان يبتدئ عامه الأزهرى مصمماً على أن يتأهب للامتحان ،

فيتفق مع جماعة من أصدقائه على أن يقرأ معهم طائفة من الكتب التى لم يكن بد من إتقانها قبل التقدم للامتحان . ثم لا يمضى شهر أو شهران حتى يشعر بأن الحظ لا يواتيه ، فيهمل ثم يكسل ثم ينصرف عن الدرس إلى غيره من شؤون الحياة . وكان يعتقد أن الحظ قد ظلمه مرة أخرى ، فلم يمنحه من نباهة الذكر ومن هذا الذكاء الخداع ما يلفت إليه الشيوخ ، كما منح فلاناً وفلاناً من أصدقائه ، مع أنه فى حقيقة الأمر ليس أقل من أصدقائه فهماً للعلم ، ولا قدرة على التصرف فيه .

ولم يكن يخفى إذا تحدث إلى أصدقائه الشباب أنه كان يعرف الطريق المأمونة المضمونة إلى الدرجة ، وأنه كثيراً ما راود نفسه عن سلوكها ، ولكن نفسه لم تطب قط عن بيع قيراط أو قيراطين ليظفر بهذه الدرجة التى تمنحه لقلب العالم ، وتزيد جرايته أرغفة ، وتغل عليه آخر الشهر خمسة وسبعين قرشاً .

وكان من أجل هذا كله ينتظر أن تصفو له الأيام ، ويبتسم له وجه الحظ ، كما ابتسم لصديقه ومواطنه فلان فى العام الماضى . فقد أقام صديقه هذا طالباً للعلم ربع قرن ، وكان ذكيًّا بارعاً ، ثم تقدم فجأة إلى الامتحان فلم يجُزْه ناجحاً فحسب ، ولكنه ظفر بالدرجة الثانية لا بالدرجة الثالثة ، ولو أنه أحسن التقرب إلى فلان من أعضاء اللجنة لظفر بالدرجة الأولى .

فلينتظر إذن كما انتظر صديقه ، ولعل الحظ أن يواتيه كما واتى

صديقه . فالأمر كله إلى الحظ أيها الأصدقاء ؛ فقد درست كما تدرسون وتعبت كما تتعبون ، وأنا أتمنى أن يكون حظكم خيراً من حظى وإن كنت لا أثق بذلك ولا أطمع فيه .

وكان هؤلاء الشباب يسمعون من صاحبهم هذه الأحاديث فيحفظونها ويثبتون فى أنفسهم طريقته فى إلقائها . وكانت طريقته طريفة حقًّا ؛ فقد كان يتحدث فى هدوء شديد وصوت هو إلى الخفوت أقرب منه إلى الجهر . وكان يعتمد على ألفاظه كأنما يريد أن يثبتها فى آذان سامعيه . وكان يفصل بين أحاديثه هذه بكثير من الفكاهات والنوادر التى كان يراها غريبة مضحكة ، فيضحك لها ويطيل الضحك ، وقد مرت على أصدقائه فلم تضحكهم ولم تلفتهم ، ولكنهم رأوه يضحك فوجموا ، ثم رأوا ضحكه متصلا فضحكوا ، ثم رأوا إغراقه فى الضحك فأغرقوا فيه . وكان ضحكه غريباً مضحكاً حقًّا إن جاز هذا التعبير ؛ فقد كان يبدؤه عالياً ثم يقطعه ويضحك صامتاً لحظة ، ثم يستأنفه عالياً ثم يقطعه ويمضى فيه صامتاً ، ثم يستأنفه ، وهكذا .

وكان الطلاب إذا خلوا إلى أنفسهم أعادوا أحاديثه ، ورددوا ألفاظه ، وقلدوا ضحكه وقضوا فى ذلك ساعة مسلية سارة .

ولكن الذى كان يعجب هؤلاء الشباب من صديقهم هذا شىء آخر ؛ فقد كان صاحب لذة بل صاحب إغراق فى اللذة وتهالك عليها . وكان يحب الحديث عن لذاته ، ويستمتع بتفصيل

هذا الحديث كما يستمتع بلذاته نفسها أو أكثر مما يستمتع بلذاته نفسها . وكانت اللذات التي يمعن فيها ويتحدث عنها بريئة إن شئت . وآثمة إن شئت أيضاً . كان يذكر لذاته إذا خلا إلى أهله ويفصِّل ذلك تفصيلا منكراً يقطعه بضحكه الغريب . وكان يذكر لذاته إذا جلس إلى طعامه الدسم في القرية وإلى طعامه الخشن في المدينة ، ويفصل ذلك بفكاهاته النادرة الفاترة وضحكه المتقطع المتصل.

وكان يذكر لذاته إذا سعى في شوارع المدينة وفي حاراتها ، وإذا وقف في الربع نفسه يستنشق الهواء وألقى عينيه إلى الطبقة السفلى ، فلم يكن يرى امرأة في الشارع أو الحارة أو الربع إلا فصّلها بعينه تفصيلا ، وحللها في نفسه تحليلا ، وجردها من ثيابها تجريداً ، ووجد في هذا الجهد الآثم لذة لا تقل عنه إثماً . ولم يكن يسمى المرأة امرأة ولا سيدة ولا أنثى ، ولا شيئاً مما تعوّد الناس أن يسموها ، وإنما كان يسميها فخذاً . ولم تكن المرأة النحيلة تعدل عنه شيئاً ، وإنما المرأة كل المرأة من ضخمت حتى اكتظت أعضاؤها بالشحم واللحم ، وكان يشبهها بالوسائد حيناً وبالحشايا حيناً آخر .

وكان يستدل على مذهبه هذا بقول كعب بن زهير في صاحبته سعاد :

هيفاءُ مقبلةً عجزاء مدبرةً

لا يُشْتَكَى قِصَر منها ولا طول

وكان يقول لأصدقائه : ألا ترون أنه لم يكد يذكر أن صاحبته كانت هيفاء إذا أقبلت حتى استدرك أمره وقوّم رأيه فذكر أنها عجزاء إذا أدبرت ! ثم يمضى بعد ذلك فى ألوان شنيعة من التفصيل ، ثم يقص الفكاهات وينثر النوادر ، ويرسل الضحك ثم يمسكه ، وقد ملك على هؤلاء الشباب أمرهم بما يلقى إليهم من حديث . وأى شيء أبلغ أثراً فى نفوس الشباب المحرومين هذه اللذات بريئها وآثمها من هذا الحديث !

وكان الصبى يسمع ذلك وهو فى ركنه منحن مطرق كأنه ليس مع القوم ، وما يفوته من حديث القوم لفظ وما تشذ عنه من أصوات القوم نبرة . وكان يقول فى نفسه : لو عرف هؤلاء الرجال مقدار ما أسمع لهم وما آخذ عنهم لاجتنبوا أن يديروا مثل هذه الأحاديث بمحضر من الصبية الناشئين .

وقد أنفق هذا الرجل منذ عرفه الصبى أعواماً فى الربع اختلفت عليه فيها شؤون كانت كلها تضحك فى ظاهر الأمر ، ولكنها تحزن وتثير الأسى عند الرويّة والتفكير .

كان فلاحاً بأدق ما تؤدى هذه الكلمة من معانى الحب للأرض ، والحرص على المال ، والجزع كل الجزع أن يُغلبَ فى بيع أو تأجير أو شراء ، وكان المال ، والمال وحده ، يسيطر على أمره كله إذا ذهب إلى قريته أو فكر فيها أو لقى أحداً من أهلها . وكان صاحب لذة بأدق ما تؤدى هذه الكلمة من معانى

الاستجابة للحس والطلب لهذه المُتَع القريبة التي لا تحتاج إلى رقة نفس ولا إلى دقة عاطفة ولا إلى صفاء ذوق . وكان طلبه للعلم وانتظاره للدرجة وسيلة من وسائله أو قل غاية من غاياته . يستريح إليها إذا جد فى تحصيل المال حتى أعياه الجد ، وإذا تهالك على الاستمتاع باللذة حتى أضناه الاستمتاع . هنالك يعود إلى ربعه ويستقر فى غرفته ، ويفكر فى زملائه وشيوخه ودرجته ، ويتحدث إلى أصدقائه هؤلاء ، ويشاركهم فى بعض الطعام ويشاركهم فى بعض الشاى . ولكنه كان على هذا كله مؤمناً شديد الإيمان . له نزعات صوفية غريبة تخرجه بين حين وحين عن أطواره هذه كلها ، وترده زاهداً متقشفاً يأخذ نفسه بالشدة والعنف ، ويفرض عليها عذاب الحرمان والجوع .

وقد اختلف مع حَمِيه ذات يوم فى بعض الأمور ، وزهد فى زوجه الفلاحة ، وطمح إلى أن يتخذ لنفسه زوجاً من أهل القاهرة ، ويُصهر إلى أسرة متحضرة متأنقة ، فطلق امرأته . وكان يتحدث بآماله هذه إلى أصدقائه مفصلا لهم فى أصرح الألفاظ وأبشعها ما يكون من الفروق بين نساء المدينة ونساء الريف . ولكنه أصبح ذات يوم وقد صُرِف عن المال وصرف عن نساء المدينة ونساء الريف ، وصرف عن لذة الطعام والشاى . لأنه أحس أن الحظ سيواتيه إن تقدم للامتحان . فلا بد إذن من أن يتقدم ، ولا بد إذن من أن يتهيأ لهذا الصراع بينه وبين الشيوخ . وأمامه

أشهر يستطيع أن يستعد فيها ، فليعيِّ أصدقاءه وزملاءه القدماء والمحدثين ، وليفرغ للأصول والفقه وللبلاغة والنحو والتوحيد ، ولهذه المواد التي كان يتألف منها « التعيين » . وقد فعل ، وتقدم للامتحان وكان يوم امتحانه يوماً مشهوداً .

أقبل على اللجنة مع الصباح وانصرف عنها عند المساء ، فأتعبها وأتعبته . وكان قد دبر لنفسه حيلة ظريفة يستريح بها من اللجنة إن اشتطت عليه ، فاشترى بطيخة أو جماعة من البطيخ وتركها قريباً من غرفة الامتحان ، وزعم للجنة حين أدخل عليها أنه مريض بسلس البول ، وأستأذنها في أن ينصرف كلما اضطرته علته إلى الانصراف . وقد رحمته اللجنة وأذنت له أن ينصرف كلما دعته علته إلى ذلك . فكان يأخذ في تقرير الدرس ويأخذ في محاورة الممتحنين إن ألقى عليه أحدهم هذا السؤال أو ذاك ، ثم يقطع تقريره أو حواره فجأة ويستأذن في الخروج ، فإذا خرج لم يذهب إلى حيث يرضى حاجة أو يشفي علة ، وإنما ذهب إلى حيث يصيب مقداراً من البطيخ يبرد به قلبه ويشحذ به ذهنه ويسترد به خاطره كما كان يقول ، ثم عاد إلى اللجنة فاستأنف التقرير أو الحوار من حيث قطع التقرير أو الحوار . وما زال باللجنة وما زالت اللجنة به حتى انقضى أكثر النهار ، وعاد إلى غرفته سعيداً موفوراً ؛ فقد أتيح له النجاح وظفر بالدرجة الثالثة وأصبح من العلماء .

وتفرق عنه أصدقاؤه مع الصيف . فلما لقوه من الخريف كان قد فارق غرفته فى الربع وحقق آماله تلك ، فأصهر إلى أسرة من المدينة ، وأقام معها غير بعيد من مسكنه القديم .

وقد أخذته نزعته الصوفية ذات يوم ، فاعتزم أن يعتكف فى المسجد أياماً يروض نفسه فيها على الصلاة والصوم وذكر الله . وقد فعل ، فلزم الخلوة أياماً لا أدرى كم عددها ولكنها لم تكن قليلة ؛ فقد خرج من الخلوة نحيلا منهوكاً . فلما عاد إلى أهله أنكروه ، ولعلهم سخروا من رجولته . فعادت إليه نفسه الفلاحة المتهالكة على اللذات ، وأدركته حميته الريفية ، فخرج مع الصباح حتى أتى مطعماً أو قهوة فأسرف على نفسه أشد الإسراف فيما التهم من فول وزيت وخبز وبصل ، ثم أسرف على نفسه أشد الإسراف فيما أطفأ به نار هذا الإفطار من شاى ، ثم أضاف إلى كل ما ألقى فى جوفه من سائل وجامد شيئاً من هذه الأشياء التى كان أمثاله يشيرون إليها ولا يسمونها ؛ فلما استقر هذا كله أو اضطرب فى جوفه عاد إلى أهله فائراً ثائراً ، فأنكروا قوته واتقوه ، وانتهى أمره إلى أن هم بأن يثب من النافذة لولا أن أدركه بعض أعضاء الأسرة فردوه عن ذلك بعد جهد وأوثقوه ، وإذا هو مجنون قد ذهب عقله .

وما ينسى الصبى ذلك الصوت الذى كان يصل إليه ذات ليلة بعد أن صليت العشاء ، والذى وقف له أولئك الشباب من

الطلاب واجمين محزونين تريد دموعهم أن تنهل فلا يمسكها إلا الحياء . وكان ذلك الصوت صوت ذلك الرجل الذى أخذه الجنون وأطلق لسانه فهو يتغنى بأبشع الهذيان . فلما أصبح ذهب به أصهاره إلى المستشفى هناك حيث يداوى أمثاله . وقد أقام فى هذا المستشفى أسابيع ، ثم خرج منه وقد تغيرت حاله كل التغيير ؛ فانخفض صوته أكثر ما كان منخفضاً ، وهدأت حركاته وانقطع ضحكه ، وأصبح يبعث فى نفس من يلقاه شيئاً غريباً من الخوف منه والإشفاق عليه .

وقد مضت الأيام بما تمضى به من الأحداث ، وتفرّق عن هذا الرجل أصدقاؤه الشباب ، وذهب كل منهم لوجه من وجوه الحياة ، وقلّ لقاؤهم لهذا الرجل ثم انقطع ، وجعلت أخباره تصل إليهم متقطعة ، ثم انقطعت هى أيضاً . وأنبأ المنبئ ذات يوم بأنه قد مات .

فسمع أصدقاؤه هذا النبأ فحزنت نفوسهم لحظة ، ولكن عيونهم لم تذرف دمعة ، ولكن وجوههم لم تنقبض إلا قليلا ، وإنما انطلقت ألسنتهم بهذه الآية الكريمة التى نتلوها دائماً كلما انتهى إلينا النعى : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

٨

وغرفة أخرى من غرفات هذا الربع كانت تقوم فيه غير بعيد عن شمالك إذا صعدت السلم ، وكانت مصدر فكاهة ودعابة ولهو لهؤلاء الشباب أيضاً .

كان يسكنها شاب لعله كان أكبر من هؤلاء الطلاب شيئاً ، وقد كان أقدم منهم عهداً بالأزهر ، ولكنه كان من جيلهم ومن طبقتهم على كل حال . كان نحيف الصوت ، يكفى أن تسمعه لتضحك من صوته . وكان ضيق العقل لم يأذن الله للون من ألوان العلم أن يستقر في رأسه لأن عقله كان محدوداً محصوراً . وكان قصير الذكاء لم يأذن الله لذهنه أن ينفذ إلى أقرب شىء وراء ما كان يقرأ فى الكتب على اختلافها . وكان مع ذلك واسع الثقة بنفسه بعيد الطمع فى مستقبله مطمئناً فى غير تكلف إلى أنه كأصحابه هؤلاء الذين يعيش معهم ويشاركهم فى أكثر ما يختلفون إليه من الدروس .

كان يشهد معهم درس الفقه ودرس البلاغة ودرس الأستاذ الإمام ، ولم يكن يخف لدرس الأصول ؛ لأن هذا الدرس كان يقتضيه أن يخرج من غرفته مع الفجر ، وقد كان لراحته مؤثراً وبها ضنيناً . وكان يشارك أصحابه فى بعض مطالعاتهم ، وكان

يشاركهم بنوع خاص فى هذه المطالعات التى لا تتصل بالدروس المنظمة ولا بالكتب التى كان الشيوخ يقرءونها .

فقد كان هؤلاء الشبان يضيقون بكتب الأزهر ضيقاً شديداً ، يتأثرون فى ذلك برأى أستاذهم « الإمام » فى كتب الأزهر ومناهجه . وكانوا يسمعون من الأستاذ الإمام حين يشهدون درسه أو حين يزورونه فى داره أسماء كتب قيمة فى النحو والبلاغة والتوحيد والأدب أيضاً وكانت هذه الكتب القيمة بغيضة إلى شيوخ الأزهر لأنهم لم يألفوها ، وربما اشتد بغضهم لهذه الكتب لأن الأستاذ الإمام قد دل عليها ونوّه بها . وكان الذين ينافسون الأستاذ الإمام من الشيوخ الأعلام يحاولون أن يذهبوا مذهبه فيدلون طلابهم على كتب قيمة أخرى ، لا تقرأ فى الأزهر لأن الأزهريين لم يألفوا قراءتها . وكان هؤلاء الطلاب لا يكادون يسمعون اسم كتاب من هذه الكتب حتى يسرعوا إلى شرائه إن وسعهم ذلك ، وربما كلفوا أنفسهم فى هذا الشراء جهداً ثقيلاً وحرماناً شديداً . فإن أعياهم ذلك استعاروه من مكتبة الأزهر ، ثم أقبلوا عليه ينظرون فيه . ثم اتفقوا على أن يقرءوه جماعة ، ويتعاونوا على فهمه .

كان يدفعهم إلى ذلك حبهم الصادق للأستاذ الإمام ورغبتهم الصادقة فى العلم والاطلاع . وربما دفعهم إلى ذلك مع هذه العاطفة شيء من غرور الشباب ؛ فقد كانوا يفخرون بتلمذتهم

للأستاذ الإمام وللشيخ بخيت وللشيخ أبي خطوة وللشيخ راضى ، وكان يملئون أفواههم بأنهم تلاميذ هؤلاء الأئمة وبأنهم مِن تلاميذهم المقربين المصطفين . ولم يكونوا يكتفون بالاختلاف إلى هؤلاء الشيوخ فى دروسهم ، وإنما كانوا يزورون شيوخهم فى بيوتهم ، وربما شاركوهم فى بعض البحث ، وربما استمعوا منهم دروساً خاصة فى يوم الخميس بعد أن تصلّى الظهر أو بعد أن تصلى العشاء . وكانوا لا يكرهون أن يعرف عنهم زملاؤهم هذا كله ، وأن يتحدث عنهم زملاؤهم بأنهم يقرءون فيما بينهم هذا الكتاب أو ذاك فى هذا الفن أو ذاك . وكانوا قد وصلوا بهذا كله إلى شيء ظاهر من الامتياز بين زملائهم ، حتى عرفوا فى الأزهر كله بأنهم أنجب طلاب الأزهر وأخلقهم بالمستقبل السعيد . فكان من المعقول أن يسعى إليهم الأوساط من زملائهم يلتمسون التفوق فى الاتصال بهم والامتياز حين يعرف الناس أنهم من أصدقائهم وأصفيائهم ، ويلتمسون بذلك الوسيلة إلى أن يتصلوا بكبار الشيوخ وأئمة الأساتذة . وكان صاحبنا من هؤلاء الطلاب الأوساط ، قد اتصل بهذه الجماعة من الطلاب ، ليقول زملاؤه إنه واحد منهم ، وليستطيع بحكم هذه الصلة أن يصحبهم فى زياراتهم للأستاذ الإمام أو الشيخ بخيت .

وكان غرور الشباب يحبب إلى هذه الجماعة هذا النوع من الامتياز ، ويهوّن عليها قبول هؤلاء الطفيليين فى العلم من ضعاف

الطلاب وأوساطهم ، ثم يتيح لهم بعد ذلك، حين يخلون إلى أنفسهم وقد أحصوا على هؤلاء الزملاء جهالاتهم وسخافاتهم وأغلاطهم الشنيعة ، أن يعيدوا ذلك وأن يضحكوا منه ملء أفواههم وملء جنوبهم أيضاً . وأكبر الظن أن صاحبهم هذا قد عرفهم في بعض الدروس ، فما زال يدني نفسه منهم حتى اتصل بهم فزارهم ، ثم أعجبه ربعهم وأعجبه جواره لهم في هذا الربع ، فاتخذ فيه غرفة وأصبح واحداً منهم ، يشاركهم في الدرس ، ويشاركهم في الشاي ، ويشاركهم في الزيارات ، ويشاركهم في بعض الشهرة ، ولكن الله لم يفتح عليه قط بأن يشاركهم في العلم والفهم ، وفي الإبانة والإيضاح . ويظهر أنه كان أوسع منهم يداً ، وأكثر منهم مالا ، أو قل إنه كان يقتر على نفسه إذا خلا إليها ، فإذا اتصل بأصحابه يسّر على نفسه وأنفق عن سعة . وربما كان يشعر بحاجتهم إلى النقد لشراء كتاب ، أو لأداء دين عاجل ، أو لإرضاء حاجة ملحة ؛ فيقدم إليهم من ذلك ما يريدون رفيقاً بهم متلطفاً لهم . وكانوا يعرفون ذلك له ويحمدونه ، ولكنهم لم يكونوا يطيقون جهله ، وربما لم يملكوا أنفسهم فضحكوا من هذا الجهل بمحضر منه ، وردوا عليه سخفه رداً عنيفاً فيه كثير من الازدراء القاسي . ولكنه كان يقبل ذلك راضياً ، ويتلقاه باسماً . وما أظن أنهم قد عرفوا في وجهه الغضب يوماً على كثرة ما كانوا يثقلون عليه بالغض منه والازدراء له . وكان أجمل ما كانوا يتندرون به عليه

علمه بالعروض أو جهله بالعروض فكلاهما سواء . كان يطالع معهم كتاباً فى النحو ، فلا يكاد يعرض لهم شاهد — وما أكثر ما تعرض الشواهد فى كتب النحو ! — حتى يكون أسرعهم إلى رد هذا الشاهد إلى بحر من أبحر العروض ، لم يكن يختلف قط وإنما كان « البسيط » دائماً . وقد يكون البيت من « الطويل » وقد يكون من « الوافر » ، وقد يكون من أى بحر من أبحر الشعر ولكنه كان « بسيطاً » دائماً .

والغريب أنه لم يكن يكتفى بالإسراع إلى إعلان أن هذا البيت من البسيط ، وإنما كان يسرع فيأخذ فى تقطيع البيت يرده إلى البسيط ، مهما يكن وزنه ، فيقطع على الجماعة درسهم ، ويدفعهم إلى بحر من الضحك لا يكاد يعرف له حد . وقد كثر منه ذلك حتى أغرى به أصحابه وأطمعهم فيه . فكانوا كلما عرض لهم بيت من الشعر أظهروا العجز عن رده إلى وزنه حتى ينبههم صاحبهم بأنه من البسيط . فإذا فعل أظهروا العجز عن تقطيع البيت حتى يأخذ صاحبهم فى تقطيعه فيرده إلى البسيط ، وهناك يستأنفون الضحك ، ويستأنفون الاستهزاء ، ويلقاهم هو بهذه الابتسامة الراضية التى لا تعرف الغضب ولا الغيظ .

وقد أقام هذا الشاب على ذلك مع أصدقائه أعواماً طوالا لم يغاضبهم ولم يغاضبوه . وكأنه أحس آخر الأمر أنه ليس من تلك الحلبة ، وأنه لا يستطيع أن يجرى فى ذلك الميدان ؛ فأخذ

يتخلف قليلا قليلا عن الدروس ، ويتكلف التعلات والمعاذير ، لا يشارك القوم فى مطالعتهم ، ويكتفى بالمشاركة فى الشاى والطعام أحياناً ، والزيارات دائماً .

وقد تقدمت السن بالصبى فى أثناء ذلك ، وتقدّم به الدرس أيضاً ، وإذا هذا الشاب يظهر العطف عليه والقدر له ، وإذا هو يعرض عليه أن يقرأ معه الكتب ، ويُعرض عن مشاركة أقرانه وأنداده إلى مشاركة هذا الغلام الناشئ . ويأخذ الغلام فى أن يقرأ معه كتباً فى الحديث وأخرى فى المنطق وأخرى فى التوحيد ، ولكنه لا يجد عنده عناء . وليس الغلام فارغاً للضحك منه والتندر به ، وليس هو قادراً على ذلك ولا راغباً فيه ، وإذا هو يحتال فى التخلص منه والمضى لشأنه .

وإذا هذا الرجل يترك العلم أو يتركه العلم ، ولكنه يظل محسوباً على الأزهر طالباً فيه مشاركاً لأصحابه فى الناحية الاجتماعية من حياتهم . وقد ارتقت حياتهم بعض الشىء ؛ رقاها ذكاؤهم وجدهم وتفوقهم ورضا الأستاذ الإمام عنهم وتقريبه إياهم ، وإذا هم يتصلون بفلان وفلان من أبناء الأسر الغنية الثرية الذين كانوا يطلبون العلم فى الأزهر إذ ذاك ، وإذا الزيارات تتصل بينهم وبين هؤلاء الشبان الأغنياء الأثرياء ، وصاحبهم معهم يزور ويزار ، وترتقى حياته الاجتماعية كما ارتقت حياة أصحابه . ولكن أصحابه لا يحسون هذا الارتقاء ولا يكادون يشعرون به . وهم إذن

لايتحدثون به ولا يتمدحون بزياراتهم لتلك البيوت الممتازة وجلوسهم إلى أصحابها النابهين ، وإنما يرون ذلك شيئاً طبيعياً مألوفاً . فأما صاحبهم فهو الذى يراه المجد كل المجد ، ويستمد منه الغبطة كل الغبطة والغرور كل الغرور ، ويستغله لبعض منافعه المادية أحياناً ، ويتحدث به دائماً إلى من أراد أن يسمع له ومن لم يرد .

وتمضى الأيام ويتفرق هؤلاء الطلاب ، وقد أخذ كل واحد منهم طريقه فى الحياة . ولكن هذا الرجل لا ينساهم ولا يسمح لهم أن ينسوه . قد عجز عن تتبعهم فى العلم فليتتبعهم فى غيره مما تمتلئ به الحياة ، يزورهم وإن لم يزوروه ، ويلقاهم فى زيارتهم عند فلان أو فلان من أصحاب المنزلة والثراء .

وقد خرج الأستاذ الإمام من الأزهر فى تلك المحنة السياسية المعروفة ، وإذا صاحبنا متصل بالأستاذ وشيعته ، متصل بخصوم الأستاذ الإمام وشيعتهم أيضاً . وقد أخذ الأزهر يضطرب ، ودخلت السياسة فى ذلك الاضطراب ، واختصمت فيه السلطتان ، وإذا صاحبنا يتصل بالمضربين مشاركاً لهم فى الإضراب ، ويتصل بخصوم الإضراب مفشياً لهم أسرار المضربين . ويتكشف الأمر ذات يوم ، وياله من يوم ! عن أن صاحبنا قد كان متصلا بالمحافظة ، فتقطع الصلة قطعاً عنيفاً بينه وبين أصدقائه ، ويُرَدُّ عن البيوت التى كان يسعى إليها ويستقبل فيها ، ويقبع فى غرفته تلك فى الربع قد خسر الناس جميعاً ولم يخسره أحد . وقد قصرت به همته

عن درجة الأزهر فهو ينفق حياته الخاملة وحيداً بائساً محتملا خموله على مضض مكتسباً عيشه فى مشقة .

ثم ينبئ المنبئ ذات يوم بأنه قد مات . أمات من علة ؟ أمات من حسرة ؟ أم مات من الحرمان ؟ ولكن أصدقاءه يسمعون النعى فلا يأخذهم وجوم ، ولا يمس نفوسهم حزن ، وإنما يتلون هذه الآية الكريمة التى نتلوها دائماً حين ينعى إلينا الناس :

« إنا لله وإنا إليه راجعون » .

٩

وكان الربع خالياً أو كالخالى حين أقبل الصبى عليه لأول مرة ، لم يكن أهله قد عادوا إليه بعد إجازة الصوم . وقد عرف الصبى بعد ذلك أن طلاب الأزهر كانوا يستحبون الإبطاء فى العودة إلى القاهرة بعد هذه الإجازة خاصة . ففى هذا الوقت كانت تبدأ السنة الأزهرية . وكأن الطلاب والعلماء كانوا يجدون شيئاً من المشقة والجهد فى مفارقة أهلهم وأوطانهم ، فكانوا يطيلون إجازتهم يومين أو أياماً ، وربما أطالوها أسبوعاً أو أكثر من أسبوع . ولم يكن عليهم من ذلك بأس ؛ فقد كان الأزهر حينئذ فى آخر أيامه السعيدة التى لم يكن النظام يحصى فيها على الأساتذة والطلاب أيام العمل وأيام الراحة ، والتى لم يكن فيها النظام يأخذ الأساتذة والطلاب بهذه المواظبة القاسية على الدرس فى جميع أيامه وفى جميع أوقاته ، وإنما كان الأمر هيناً سهلا ، تعين المشيخة آخر الإجازة وأول العمل ، والأساتذة أحرار يبدءون متى أرادوا أو متى استطاعوا . والطلاب أحرار يُقبلون على الدروس متى أحبوا أو متى أتاحت لهم ظروفهم أن يقبلوا عليها .

كان الأمر هيناً سهلا ، وكان يعتمد على الرغبة والإرادة أكثر مما يعتمد على الدقة المقررة والنظام المحتوم . وكان أجدر أن يميز

أصحاب الجد والعمل من أصحاب الكسل والعبث ، وأن يدفع الطلاب إلى العلم حباً فيه وطموحاً إليه لا طاعة للأمر ولا إشفاقاً من العقاب .

وكان الأساتذة والطلاب يستمتعون بهذه الحرية الحلوة السمحة فى قصد واعتدال . فكان الأسبوعان الأولان من أيام الدرس أسبوعى حرية وسعة ، كما كانا أسبوعى مودة وتعارف وبر . يُقبل الطلاب من بلادهم على مهل ، فإذا أقبلوا تزاوروا وبر بعضهم بعضاً . ثم سعوا إلى دروسهم على مهل أيضاً . ويقبل الأساتذة من بلادهم فى أناة وريث ، فإذا أقبلوا هيئوا منازلهم للإقامة الطويلة ، ثم سعى بعضهم إلى بعض بالتحية والود ، ثم بدءوا دروسهم لا معجلين ولا مرهقين . على أن كثيراً من الأساتذة والطلاب كانوا يؤثرون العلم على أهلهم وأوطانهم . فمنهم من يقيم فى القاهرة أثناء الإجازة دارساً فى بيته أو فى الأزهر نفسه أو فى غيره من المساجد ، ومنهم كان يتعجل العودة إلى القاهرة متى سنحت له الفرصة وسمحت له الظروف ، ليأخذ من الدرس الحر الخاص نصيباً قبل أن يبدأ فى الدرس المنظم المشترك .

من أجل هذا كله كان الربع خالياً أو كالخالى حين أقبل عليه الصبى وأخوه . لم يكن يعمره إلا عمى الحاج على وزميلان من زملاء الشيخ الفتى وهذان الفارسيان . ثم لم يكد الصبى يستقر فى الربع يوماً ويوماً ، حتى أخذ أهله يعودون إليه منفردين

ومجتمعين مع الصباح ومع المساء ، وحتى أخذ الربع يمتلئ بالحركة والنشاط ، وترتفع فيه الأصوات من يمين وشمال ، ويأخذ شكل المكان المزدحم بأهله أشد الازدحام . وقد كان مزدحماً بأهله حقًّا : فقد كان بعض غرفاته يكتظ بالطلاب على نحو غريب ، حتى لقد كان يسكن غرفة من هذه الغرفات عشرون طالباً .

كيف كانوا يجلسون ؟ كيف كانوا يدرسون ؟ كيف كانوا ينامون ؟ هذه أسئلة ألقاها الصبي على نفسه ولكنه لم يجد لها جواباً . وإنما عرف أن أجر الغرفة لم يكن يزيد على خمسة وعشرين قرشاً ، وربما نزل إلى العشرين فى كل شهر ، فكان الطالب يسكن بقرش واحد فى الشهر على هذا النحو .

وهذا يصور حال هذه الجماعات الضخمة من أبناء الريف التى كانت تفد على القاهرة لتدرس العلم والدين فى الأزهر ؛ فتصيب من العلم والدين ما تستطيع ، ولكنها تصيب معها ألواناً من علل الأجسام والأخلاق والعقول أيضاً . وكانت الغرفة التى تلى غرفة الصبي من جهة اليمين خالية أثناء الأسبوع الأول ، لم يسمع الصبي من قبلها صوتاً أو حركة . ثم انقضى الأسبوع وأقبل أسبوع آخر . فلم تشغل الغرفة ولم تأت من قبلها حركة أو صوت ، حتى أخذ الطلاب يتساءلون عن الشيخ الذى كان يسكنها قبل الصوم : ما خطبه ؟ ويقول بعضهم لبعض : لعله تحول عن هذا الربع

إلى مكان آخر . ولكن الصبي استيقظ فى ليلة من ليالى الجمعة على صوت عمى الحاج علي يشق الليل وعلى صوت عصاه تضرب الأرض ، ففكر كما كان يفكر ، وانتظر صوت المؤذن كما كان ينتظره ، وأذّن مع المؤذّن فى نفسه كما كان يفعل . وانقطع الصوت ، وجعلت نفس الصبي تتبع المصلين فى المسجد وهم يقبلون على صلاتهم ، منهم المتعجل النشيط ومنهم المتثاقل المتبلد . وإذا صوت غريب مرتفع يشق الحائط من وراء الصبي ويبلغ أذنه ، فيبعث فى جسمه رعدة تجرى فيه من رأسه إلى قدميه . ولم ينس الصبي قط هذا الصوت ، ولم يذكره قط إلا ضحكت له نفسه وإن شغل الجد شفتيه عن الابتسام . كان صوتاً غريباً ، ملأ الصبي رعباً أول الأمر ، ثم دفعه إلى ضحك مرتفع لم يستطع أن يملكه على ما كان يخاف من إيقاظ أخيه : ال .. ال .. ال .. الله الله أك .. ال .. ال . . الله أك . الله أك . الله أكبر . . .

كذلك وصل الصوت إلى الصبي ، فأنكر أوله وأنكر تردده ، وعرف آخره . ولكن الصوت لم ينقطع عند انتهاء التكبيرة ، وإنما استؤنف بعد ذلك مرة ومرة ، حتى استقر آخر الأمر وقد أخذت حروف التكبير مواضعها من فم المصوت بها ومن الهواء ومن أذن الصبي ونفسه أيضاً . ومضى الصوت من وراء الحائط بعد ذلك يقرأ الفاتحة ، فعرف الصبي أنه صوت رجل يصلى . ومضى الصوت يقرأ الفاتحة حتى بلغ قول الله تعالى : « إياك نعبد

وإياك نستعين » ، فوقف عند السين ولم يستطع أن يتقدم ، وإذا هو يستأنف التكبير على نحو ما بدأه : ال . . ال . . ال . . الله أك . ال . ال . هنالك لم يملك الصبي نفسه فاندفع فى ضحك مرتفع متصل استيقظ له أخوه فزعاً ، وسأل الصبي ما به ؟ فلم يستطع الصبي جواباً . ولكن أخاه لم يحتج إلى هذا الجواب فقد سمعه من وراء الحائط ، فاندفع هو أيضاً فى ضحك مكظوم ، ثم قال للصبي فى صوت خافت : مهلا ؛ فهذا جارنا الشيخ فلان قد عاد وهو يصلى الصبح وهو شافعى .

واستأنف الشيخ الفتى صمته وهدوءه يدعو إليه النوم . وضبط الصبي نفسه وتتبع صوت الشيخ من وراء الحائط حتى أتم صلاته بعد جهد ثقيل . ولكن سؤالاً قد استقر فى نفس الصبي : ما بال هذا الشيخ الشافعى يكلف نفسه هذا الجهد وهذا العناء ولا يتم صلاته إلا بعد هذه المشقة التى لا تطاق ؟ فلما أصبح سأل أخاه متشجعاً ، فعرف منه أن الشيخ موسوس بعض الشىء ، وأنه يريد أن يحقق نية الصلاة ، وأن يخلص قلبه ونفسه وضميره لله إذا أقبل على صلاته وفى أثناء مضيه فيها . فإذا رأيته يتردد ويعود من حيث بدأ ويقطع الصلاة ليبتدئها ، فاعلم أنه قد أحس عارضاً من أمور الدنيا عرض لنفسه فصرفها عما ينبغى أن تخلص له من ذكر الله .

وكان هذا الشيخ هادئاً أشد الهدوء ، لا يكاد يسمع له صوت

ولا تكاد تسمع له حركة إلا إذا صلّى الفجر . وقد احتاج الصبي إلى أيام وأيام ليعوّد نفسه هذا الصوت وليسمعه دون أن يضحك منه أو يرثى لصاحبه من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجِنّة والناس .

ولم يبق فى نفس الصبي من هذا الشيخ بعد أن مضت الأعوام إلا ذكرى هذا الصوت وذكرى قصتين شهد إحداهما بنفسه وتحدث إليه بالأخرى الرواة . فأما الأولى فقد كانت للصبي مع الشيخ حين تقدمت به السن وحين تقدم به الدرس وحين بدأ يسمع دروس البلاغة . فقد ذهب يحضر درس الشيخ وسمعه يفسر الجملة المشهورة فى التلخيص « ولكل كلمة مع صاحبتها مقام » . وما أكثر ما يقال حول هذه الجملة من كلام فى « المختصر » و « المطول » و « الأطول » وفى الشروح والحواشي والتقارير ، وهى على ذلك واضحة جلية لا تعمية فيها ولا غموض . وكان الشيخ كغيره من شيوخ الأزهر يُقبل على تفسير هذه الجملة وتقرير ما يقال حولها من كلام كثير ، مجهوداً مكدوداً قد بُحّ صوته وخارت قواه وتصبب جبينه عرقاً . وأمانة العلم كما تعرف ثقيلة جداً لا ينهض بها إلا الأقوياء ، وقليل ما هم .

فأخذ الغلام يناقش الأستاذ فى بعض ما كان يقول كدأبه مع أساتذته جميعاً ، ولكن الشيخ رد عليه فأفحمه وألجمه وملأ قلبه فى وقت واحد غيظاً وازدراء وخجلا . قال الشيخ للغلام

دع عنك هذا يا بنى ؛ فإنك لا تحسنه وإنما تحسن هذه القشور التى تُقبل عليها فى الضحى ، فأما اللباب فلم تخلق له ولم يخلق لك . وضحك الشيخ وتضاحك الطلاب ، واستحيا الغلام أن يقوم عن الدرس قبل تمامه ، فأقام على مضض حتى انصرف مع غيره من الطلاب . وكانت القشور التى عرّض بها الشيخ والتى كان الغلام يقبل عليها فى الضحى دروس الأدب وكتاب الكامل للمبرد خاصة . ومنذ ذلك الوقت سقط الشيخ فى نفس الغلام وبغّض إليها . وقد كان الغلام يحبه ويكبره . وأصبح الشيخ موضوعاً من موضوعات الفكاهة التى كان الغلام يلهو بها مع أترابه فى الضحى قبل درس القشور ، وعند الظهر بعد درس القشور . وجاءت القصة الأخرى من قصتى الشيخ ، فلم تزد الغلام إلا عبثاً به وتندراً عليه وتفكهاً مع أترابه بقول الشعر فيه . ومع ذلك فقد كانت قصة يسيرة لا غرابة فيها . ولكن أى شىء أيسر من ضحك الشباب !

كان للشيخ ابن لا يظهر عليه الذكاء ولا يدل شىء من أمره على أنه قد خلق لطلب العلم . ولكنه مع ذلك كان يطلب العلم ، وكان يعيش مع أبيه فى غرفته هادئاً كأبيه ، صامتاً كأبيه ، حسن الحوار كأبيه . وأقبل ذات يوم أو ذات ليلة على أبيه نفر من أصدقائه يزورونه ، فطلب القهوة إلى ابنه وقدمت القهوة بعد لحظات ، وأقبل الشيوخ على فناجينهم فى شره إليها كعادتهم ،

فعبّوا فيها أو قل مصّوها مصّاً طويلا له صوت طويل ، ولكنهم لم يكادوا يبلعون حلوقهم .بما مصوا حتى ردته حلوقهم ردّاً عنيفاً ، وإذا هم جميعاً يسعلون وينحنحون متحرّفين لذلك يريدون أن يبرئوا حلوقهم مما أصابها ، وقد جرت القهوة واللعاب على لحاهم وصدورهم وهم يسعلون ويضطربون اضطراباً شديداً : ذلك لأنهم لم يشربوا قهوة البن ، وإنما شربوا قهوة النشوق . أخطأ الفتى علبة البن ، وأخذ مكانها علبة النشوق .

وكانت لقصة الغلام مع الشيخ فى درس البلاغة عواقبها ؛ فقد انصرف عن الشيخ إلى شيخ آخر كان مجاوراً له فى الربع ، وكانت غرفته تلى غرفة الشيخ الموسوس ، وكان شافعيّاً مثله ولكنه لم يكن موسوساً . وكان أهدأ الناس وأرزن الناس وأطيبهم قلباً وأقلهم كلاماً . لم يسمع الصبى صوته إلا حين كان يلقى السلام عليه أو على من يمر به من أصحابه . فلما انصرف الغلام عن درس الشيخ الأول ذهب من غده إلى درس الشيخ الثانى ، وكان يلقى درسه فى تلك القبة من جامع محمد بك أبى الذهب ، وكان الغلام يعرف هذا الجامع حق المعرفة . سمع دروس النحو والمنطق فى جميع أماكنه وزواياه ، وكانت له قصص قد نلمّ بها فى هذا الحديث .

فأقبل الغلام إذن مع الظهر مُنْصرَفه من درس القشور ، فصعد هذه الدرجات التى كان يألفها ، ثم خلع حذاءه ومشى فى هذا

الممر بين حلقتين من حلقات الدرس طالما عرفهما ، وتخطى عتبة القبة وجلس فى حلقة الشيخ ، فلم ينتظر إلا قليلا ، حتى أقبل الشيخ هادئاً كعادته ، فحمد الله وصلى على نبيه وأخذ يقرأ قول المؤلف فى تنكير المبتدأ وفى نُكتَته ومزاياه . ثم مضى حتى وصل إلى استشهاد المؤلف بالآية الكريمة « ورِضْوانٌ من الله أكبر » فجعل يعلل مع المؤلف والشارح والمحشى والمقرر تنكير الرضوان بكلام لم يعجب الغلام ولم يقع من نفسه ، ولم يستطع الغلام أن يصبر على ما كان يسمع ، فأخذ يجادل الشيخ ، ولكنه لم يكد يفعل حتى قطع الشيخ عليه كلامه وقال فى صوته الهادئ المطمئن :

« اسكت يا بنى فتح الله عليك وغفر لك ووقانا شرك وشر أمثالك . اتق الله فينا ولا تشاركنا فى هذا الدرس فتفسد علينا أمرنا ، وانصرف إلى ما أنت فيه من هذه القشور الضالة المضلة التى تُقبل عليها فى الضحى » .

وتضاحك الطلاب ، ووجم الغلام ، واستأنف الشيخ قراءته وتفسيره فى صوته الهادئ المطمئن الرزين . وأقام الغلام على مضض حتى انصرف الطلاب ، فانصرف معهم ثائراً محزوناً وقد أعرض عن دروس البلاغة وأنفق بقية عامه يخرج من درس القشور إذا كان الظهر فيمضى إلى دار الكتب فى باب الخلق فيمكث فيها إلى أن يحين إغلاقها قبيل الغروب .

أكان اتفاق الشيخين على رد الغلام عن علمهما مصادفة

أم كان أمراً مدبراً ؟ لم يعرف الغلام ذلك . ولكن ذكرى هاتين القصتين الآن تعجل" للحوادث دعا إليه الاستطراد . فالخير أن نعود إلى الربع ومن كان فيه ، وما كان فيه ، حين أقبل عليه الصبي لأول عهده بطلب العلم .

١٠

وفى زاوية الربع من يمين كانت تقوم غرفة سكنتها أسرة لم يعرف الصبى قط كيف صعدت إلى هذا الربع ، ولا كيف استقرت فيه ، يأخذها العلم وطلابه من جانبيها ، وكان حقها أن تستقر فى الطبقة السفلى بين سكان هذه الطبقة من الباعة والعمال . ولكنها صعدت إلى حيث العلم وطلابه وأساتذته ، فأقامت بين هذا كله لم تؤذ أحداً ولم يؤذها أحد ، ولم يتصل الود أو لم تتصل المعرفة بينها وبين أحد .

كانت غريبة فى هذا الربع . كما كانت غريبة فى القاهرة . فقد كانت لهجتها إذا تحدثت تدل على أنها قد هبطت من الصعيد ، بل من أقصى الصعيد . ولعل غربتها هى التى صعدت بها إلى هذه الطبقة الثانية من الربع ولم تقف بها عند الطبقة الأولى . فقد كان سكان الطبقة الثانية كلهم غرباء ، شيخ من الإسكندرية وفارسيان وطلاب وأساتذة قد أقبلوا من أقطار مصر على اختلافها . فلا بأس على هذه الأسرة الغريبة أن تقيم بين هؤلاء الغرباء . فأما الطبقة الأولى من الربع فقد كان العمال والباعة الذين يسكنونها جميعاً من أهل القاهرة أو من الذين بعد عهدهم بها حتى أصبحوا من أهلها وورثوا لغتها وعاداتها .

كانت هذه الأسرة تتألف من عضوين اثنين : امرأة قد تقدمت بها السن حتى جاوزت الستين ، وأصبح من العسير بل من المستحيل أن تتخذ لغة القاهرة وتصطنع عاداتها ، وابن لها شاب قد نيف على العشرين ولم يبلغ الثلاثين بعد ، فهو حرى إذا مضى عليه الزمن أن يلوى لسانه بلغة القاهرة ، وأن يأخذ نفسه بعادات أهلهـــا ، وكانت الأم لا تصنع شيئاً كما ينبغى لأمثالها حين يتركن الصعيد ويَقَـرْنَ فى غرفة من غرفات هذا الربع فى مدينة القاهرة .

لم تكن تصنع شيئاً لتكسب حياتها ، إنما قسم الأمر بينها وبين ابنها قسمة عدلا ، فعلى الفتى أن يجدّ فى الشارع طول النهار ويعود بالقوت مع الليل ، وعلى أمه أن تعنى بالغرفة وتهيئ الطعام لابنها ولنفسها .

وكان الفتى بائعاً متجولا ، يصنع ما يبيعه فى غرفته ، يبدأ فى صنعه مع الصبح ، فإذا ارتفع الضحى وكاد النهار ينتصف خرج إلى الشارع بما أعد ، فجعل يتغنى به متنقلا متجولا فى حيث تدفعه قدماه إليه من الشوارع والحارات ، يبعد حيناً ويقرب حيناً ، ولكنه لا يعود حتى يبيع ما يحمل . وكان يحمل فى الشتاء هذا اللون من ألوان الحلوى الذى يسمى « غزل البنات » ، وكان يحمل فى الصيف هذا اللون الآخر من ألوان الحلوى الذى كان يسمى مرة « جيلاتى » ومرة « دندورمة » .

وكان الفتى يصنع هذا اللون أو ذاك فرحاً مرحاً متغنياً أو متكلفاً للفرح والمرح والغناء . فإذا أتم صناعته حملها ومر أمام غرفاتنا هادئاً صامتاً مستأنياً ، حتى إذا انحرف إلى السلم وهبط منه إلى الحارة ارتفع صوته فجأة بغناء حلو رقيق ، يمدح فيه ما كان يحمل من طعام ، ويدعو إليه طلابه من الصبية والنساء . وكأن الفتى كان يستبيح لنفسه الغناء ما أقام فى غرفته ، ويحظر على نفسه الغناء إذا مر بغرفات أهل الوقار والجد من العلماء والطلاب . فإذا هبط إلى الطريق العام استباح لنفسه ما يستبيح لها الباعة جميعاً ، فغنى طعامه ودعا الناس إليه . وكأن الفتى كان يشعر فى نفسه بأن ليس هناك خير فى أن يتغنى ما كان يحمل من حلوى أو يدعو إليه أمام هذه الغرفات ؛ فأهلها أصحاب جد لا يحفلون بالحلوى ولا ينشطون لها ، وإنما يحفلون بالعلم وينشطون للعلم . وأكبر الظن أن الفتى كان مخطئاً فى هذا التقدير . فقد كان بين أهل الربع من غير شك من كانوا يحبون غناءه ويتشوقون إلى غزل البنات أو إلى الدندورمة ، ويودون أن يقف وأن يكونوا أول من يفتح عليه ، ولكنهم لم يكونوا يفعلون ، يمنعهم من ذلك الحياء حيناً وضيق ذات اليد أحياناً .

وفى ذات يوم انقطع غناء الفتى وانقطع صوت أدواته التى كان يحرك بها ألوان الحلوى . وقام مقام هذا الغناء وهذه الأصوات

غناء آخر وأصوات أخرى ؛ فقد جعل نسوة يختلفن إلى هذه الغرفة متصايحات متضاحكات أول الأمر ، ثم مزغردات متغنيات ناقرات على الطبـول ، حتى أصبحت حيـاة الطلاب والعلماء عناء ثقيلا . ولكن حياة الصبي رقّت لذلك وراقت وامتلأت لذة وحبوراً . ذكر ريفه بهذه الطبول وهذه الزغاريد وهذا الغناء ، وقد كان يحب هذا كله أشد الحب ويجـد فيه لذة ومتاعـاً لا يقلان عما كان يجد من اللذة والمتاع حين كان يستمع لشيوخه وهم يتغنون بما كانوا يلقون فى دروسهم من علم ، وإن اختلف نوع اللذة والمتاع اختلافاً شديداً .

ثم أضيفت إلى أصوات النساء هـذه أصوات أخـرى ساعة من نهار ، أصوات الحمالين الذين أخذوا يصعدون سلم الربع ويزحمون طرقه بما كانوا يحملون إلى هذه الغرفة من متاع وهم يتصايحون ويتشاتمون جادين مرة ومازحين مرة أخرى ، والنساء يلقينهم ويتلقين أمتعتهم بنقر الطبول ورفع الزغاريد وإرسال الغناء . وربما ابتهجت امرأة من أهل الطبقة السفلى لبعض ما كانت تسمع وترى ، فذكرت يوم زفافها أو استحضرت يوم زفاف ابنها أو بنتها الذى لم يأت بعد ، وإذا هى تزغرد مع المزغردات وقد تغنى مع المغنيات على غير معرفـة بأصحاب العرس وعـلى غير مودة بينها وبينهم . ولكن الفرح كثير الشيوع كما أن الحزن كثير الشيوع ، ما أسرع ما تنتقل به العدوى بين المصريين !

وقد جاء اليوم الأكبر يوم الخميس بعد أن لقى العلماء وطلاب العلم من هذا الاضطراب شرًّا عظيماً أزعج أصحاب الجد منهم عن غرفاتهم وعن الربع كله ، فذهبوا يلتمسون الهدوء الذى يحتاج إليه الدرس عند أصحابهم أو فى المساجد . أقبل يوم الخميس فاشتد الاضطراب حتى تعدى حده المألوف وتجاوز الربع إلى الحارة ، فضُرب السرادق ، وجعلت الموسيقى تعزف من العصر ، وأقبل ناس من غير أهـل الحى فابتهجـوا وطعموا وحيـا بعضهم بعضاً واستمعوا للغناء . والصبى رابض عند نافذته لا يفوته من هذا كله شيء ، قد نسى العلم والعلماء والأزهر وأهل الأزهر ، ونسى طعامه وشرابه وفنى فى هذه الموسيقى التى كان يسمعها فى القاهرة لأول مرة ، كما فنى فى هـذه الألوان المختلفـة من الأغانى ، أغانى الشعب فى أول الليـل ، وأغانى الشيـخ المحترف حـين تقدَّم الليل .

فأما أخوه وأصحابه فقد هجروا الربع فى هذا اليوم هجـراً غير جميل . وأما هو فلم يتحول عن مكانه حتى تقدم الليل ، وكاد عمى الحاج على يخرج من غرفته فيشق الليل بصوته ويضرب الأرض بعصاه ، ولكنه لم يفعل . ولو قد فعل لما سمع صوته أحد ولا أحس عصاه أحد . وأين كان يقع صوته وعصاه من هذه الضوضاء المنعقدة التى طردت النوم عن الحى كله ، وهذا صياح فظيع ينبعث طويلا ممتدًّا ، وهذه الزغاريد تحيط به وترقص حوله إن صح

أن ترقص الزغاريد ، وهذا الفرح والابتهاج يرقصان من حول الألم والعذاب ؛ فقد أدخل الفتى على أهله . ثم يسعى الليل هادئاً بطيئاً رزيناً ، فيمس بيده المظلمة العريضة هذه الأشياء وهؤلاء الأحياء ، وإذا المصابيح قد أطفئت ، وإذا الأصوات قد سكتت ، وإذا النوم قد أقبل رفيقاً كأنه اللص فضم بين ذراعيه أهل الحى جميعاً إلا هذا الصبي الذى لم يتحول عن نافذته ولم ينقطع تفكيره فى هذا الألم الطويل الممتد . يرقص من حوله فرح عريض مضطرب ، ولكن الصبي يعود إلى نفسه لأن صوتاً يأتيه من قريب ينبئه بأن الليل قد انقضى وبأن الصلاة خير من النوم ، الصلاة خير من النوم ، ولكن الصبي لم ينم من ليلته ، وهو على ذلك ينهض ويتوضأ ، حتى إذا فرغ المؤذن من أذانه أدى الصبي صلاة الصبح ، ثم التف فى لحافه وامتد على بساطه القديم ، وذهل عن نفسه أو ذهلت نفسه عنه فلم تعرفه ولم يعرفها إلا حين أقبل عمى الحاج على حين ارتفع الضحى يطرق الباب طرقاً عنيفاً ويصيح صيحته المعروفة : « يا هؤلاء ، يا هؤلاء ! » .

١١

ولن يتم وصف الربع وتصوير البيئة التى عاش فيها الصبى لأول عهده بالقاهرة إذا لم يُذْكَرْ أشخاص كانوا يقيمون فى الربع وكأنهم ليسوا من أهله ، وأشخاص آخرون كانوا يلمون بالربع بين حين وحين وكأنهم من أهله المقيمين فيه . فمن المقيمين النازحين ذلك الشيخ الذى تقدمت به السن حتى جاوز الخمسين ، والذى طلب العلم جاداً فى طلبه ما استطاع والتمس الدرجة محتملا فى ذاتها ما أطاق ، فلم يحصل من العلم إلا قليلا ، ولم يتقدم إلى الدرجة إلا رد عنها فيئس ولم ييأس ، وأقام جسمه فى الربع ونزحت نفسه عنه . استحيا أن يعود إلى بلده مخفقاً فأقام فى القاهرة وفى حيث كان يقيم أيام كان يطلب العلم جاداً مجتهداً ، ودبر أمر أسرته فى الريف من بعيد يختطف نفسه إليها يوم الخميس إذا أمسى ليعود إلى الربع يوم السبت إذا أصبح . وله حظ من ثراء وفضل من نعمة ؛ فهو يعيش بين هؤلاء الطلاب عيشة الأغنياء من أهل الريف . قد أثث غرفته بمتاع ممتاز ، وأقام فيها مصبحاً وممسياً لا يفارقها إلا قليلا ، يخيل إلى الناس أنه يقرأ ويدرس ، وأنه قد حفظ العلم ووعى أسفاره فليس هو فى حاجة إلى أن يختلف إلى الدروس ويسمع للشيوخ . ولو قد

أسعده الحظ وواتته الأقدار لـكان شيخاً مثلهم يلقى الدروس ويختلف إليه التلاميذ ؛ فقد صحب أكثرهم حين كانوا طلاباً ، واستمع معهم للشيخ الإمبابى وزار معهم الشيخ الأشمونى ، ولكن الحظ وفى لهم وأخلفه ، فأصبحوا أساتذة وظل هو فى هذه المنزلة بين المنزلتين ، منزلة الطالب ومنزلة الأستاذ .

و لكنه على كل حال قد اتخذ أكثر خصال الأساتذة ؛ فهو لا يشارك أصدقاءه الشباب فى درس ولا يقرأ معهم كتاباً ، وإنما يلقاهم بين حين وحين مترفعاً عليهم شيئاً ، مترفقاً بهم قليلا ، يشهد طعامهم وشايهم ويدعوهم إلى طعامه وشايه . ويتحدث إليهم فى صوت هادئ ممتلئ وبحروف مضخمة مفخمة ، ولكنه لا يتحدث إليهم فى العلم وإنما يتحدث إليهم عن العلماء يعيب أكثرهم ويمدح أقلهم ، يغلو فى العيب ويقتصد فى الثناء ، ويتحدث إليهم عن المال وعن تدبيره ، وعن مكانته بين أهل القرية وصيته بين أهل المركز وارتفاع شأنه بين أهل الإقليم ، وعن إخوته الذين يشرفون على الحرث والزرع ، وأخيه النابه النجيب الذى عظم نصيبه من الذكاء وقل نصيبه من مواتاة الحظ ، فلم يفتح الله عليه بنيل الشهادة الابتدائية على تقدم سنه حتى كاد يبلغ العشرين ؛ لا لأنه كان مقصراً أو غبيًّا ، بل لأن الحظ كان يمانعه ويعاكسه . وقد قررت الأسرة أن تغالب الحظ ، وصمم الشيخ على أن يغلب الحظ على أخيه ، ويثب بهذا الفتى من الخمول إلى نباهة الذكر وارتفاع

الشأن ، فأزمع أن يدخله المدرسة الحربية ويجعل منه ضابطاً باسلا تزدان كتفه لا بالنجمة بل بالنجمتين بل بالنجوم .

ولكن الحظ كان أقوى من الشيـــخ ومن أسرته ، فرد الفتى عن المدرسة لأن هيأته لم تعجب الممتحنين . والشيخ ساخط عـــلى الحظ مصمم على مغالبته ، يتحدث بهذا كله حديثاً متقطعاً متصلا ، تقطعه قرقرة الشيشة التى كان صاحب القهوة يحملها إليه وجـــه النهار وآخره وحين يتقدم الليل ، والتى كان ربما أعدها لنفسه أو أعدها له خادمه الصغير ، والتى كانت تبهـــر هؤلاء الطلاب وتثير فى نفوسهم شيئاً من الإعجاب بثرائه يمازج ازدراءهم لجهله وتندرهم بغبائه .

وما ينسى الصبى أن هـــذا الشيخ الغنى أراد ذات يوم أن يتخفف من بعض أثاثه ويشترى خيراً منه وأرقى ، فعرض قديمه على هؤلاء الطلاب ، فكلهم نكل عن الشراء إلا أخا الصبى ، فإنه اشترى منه دولاباً يأتلف من قطعتين تقوم إحداهما على الأخرى ، فأما القطعة السفلى فقد كان لها بابان مُصْمَتَان ، وقد خصص أعلاها لثياب الشيخ الفتى وخصص أسفلها لكتبه التى لم تجلد والتى لا يحسن أن ترى ، وخصص جزء منـــه لما كان الشيخ يحرص على ادخاره لنفسه من طيب الطعام . وكان فى أعلى هذه القطعة السفلى درجان خصصهما الشيخ الفتى لأوراقـــه المنثرة ولنقوده حين كانت تصل إليه أول الشهر ؛ فكان يضعها

فى أحد هذين الدرجين ويأخذ منها بمقدار بين يوم ويوم ، وقد حفظ مفتاحيهما فى جيبه . وأما القطعة العليا فكان لها بابان زجاجيان وقد خصصت للكتب المجلدة التى يبعث منظرها فى النفوس بهجة ورضا .

وقد غالى الشيخ بدولابه هذا وساوم فى ثمنه حتى تجاوز به الجنيه ؛ لأنه كان من خشب البندق ، واشتراه الشيخ الفتى على ذلك . ومن المحقق أن شراءه قد جر على الشيخ الفتى وعلى أخيه أعباء ثقالا . فلم يكن بد من دفع هذا الثمن أقساطاً ، ومن أن تقتطع هذه الأقساط من وظيفة الشهر الضئيلة التى كانت تأتى من القرية . ثم لم يكن بد من أن تشترى الكتب ومن أن تجلد وترص لتبدو أعقابها مزدانة باسم الشيخ الفتى من وراء الزجاج . وكان هذا كله يقتطع من وظيفة الشهر ويضطر الطالبين إلى أن يقترا على أنفسهما فى الرزق . ثم عجزت وظيفة الشهر عن أن تنهض بهذه الأعباء ، فبدأت الاستدانة ، وقل ما كان يودع فى الدرج من نقود ، وكثر الإلحاح على الشيخ الوالد فى أن يزيد الوظيفة أو يضيف إليها شيئاً بين حين وحين .

ولكن شراء هذا الدولاب قد رفه على الصبى وأثار فى نفسه كثيراً من الفرح والبهجة ؛ فقد كان للشيخ الفتى صندوق طويل عميق عرفه الصبى فى أثناء طفولته حين كانت أمه تحفظ فيه ثيابها ونفائس هذه الثياب خاصة . وكان لهذا الصندوق

غطاء مجوف قليلا يرفع فيتكشف عن عمق . كان الصبي يراه عظيماً ، ويتكشف عن درجين خفيين كانت أمه تحفظ فيهما حليها حين كان لها حلي . ثم افتقد الصبي هذا الصندوق في مكانه من الدار ذات يوم فلم يجده ، وكان كثيراً ما يلعب عنده مع أخواته ، وكان كثيراً ما يجلس عليه متربعاً وتجلس أخواته بين يديه على الأرض متربعات وهو يقص عليهن أحاديثه ويسمع منهن أحاديثهن .

افتقد الصبي هذا الصندوق ذات يوم فلم يجده لأنه حمل إلى النيل حيث أودع سفينة ذاهبة إلى القاهرة ، وهناك تلقاه الفتى الشيخ فحفظ فيه ثيابه وكتبه التي لم يكن يجد لها مستودعاً . وقد حزن الصبي على هذا الصندوق حزناً شديداً ، واضطر إلى أن يجلس مكانه متربعاً على الأرض ليتحدث إلى أخواته ويسمع منهن .

فلما انتقل الصبي إلى القاهرة كان شديد الشوق إلى أن يمس الصندوق ويجلس عليه ويمسح بيده الصغيرة خشبه الأملس . ولكن الصندوق كان بعيداً من مجلسه ، قد وضع في زاوية من زوايا الغرفة ، فلم يكن ذهاب الصبي إليه سهلا ولا ميسوراً . فلما اشترى الدولاب وانتقلت إليه ثياب الشيخ الفتى وكتبه ، سقط أمر الصندوق ، فانتقل من مكانه في الغرفة إلى مكان مهمل في الدهليز يكون عن شمال الصبي إذا دخل ، وقيل للصبي : ضع في هذا

الصندوق ثيابك وما قد يكون لك من كتب إن اشتريت كتباً .
ومنذ ذلك الوقت هجر الصبي مجلسه ذاك من الغرفة أثناء النهار واستحيا أن يجلس على الصندوق فيضحك منه من يراه ، ولكنه جلس إلى جانبه مما يلي عتبة الغرفة مسنداً ظهره إلى الحائط معتمداً بيده على الصندوق ، متحيناً فرصة إن أتيحت له لينهض فيجلس على الصندوق ويداعبه . وقد يرفع غطاءه ويضع يده فى هذا الدرج ثم فى ذاك ، ولكنه لم يكن يجد فيهما شيئاً ، وربما انحنى على ثيابه القليلة التى كانت ملقاة فى أعماق هذا الصندوق يقلبها مستمتعاً بذلك كأنه يملك شيئاً ويتخذ له حرزاً لا يشاركه فيه غيره . ولكن الأيام قد مضت وتبعتها الأيام وامتلأ هذا الصندوق كتباً .

وشخص آخر كان يقيم فى الربع نازحاً عنه غريباً بين أهله وإن وصلت القرابة بينه وبين بعض هؤلاء الطلاب ، ووصل الود الخالص بينه وبينهم جميعاً . كان قصير النظر ، لا يكاد يبصر إلا عن قرب شديد ، وكان طويل الجسم ، طويل الإقامة على طلب العلم فى الأزهر ، طويل السكنى فى هذا الربع ، قد جد فى طلب العلم ما استطاع ، وجد العلم فى الهرب منه ما استطاع . فلم يكن غريباً بين الطلاب وحدهم وإنما كان غريباً بين الكتب التى كانت تملأ غرفته أيضاً . شهد الدروس وسمع من الشيوخ ، فلما استيأس من هذا كله قبع فى غرفته لا يكاد ينتقل

منها إلا إلى هذه الغرفة أو تلك من غرفات الربع ليتحدث إلى هذا الصديق أو ذاك . وقد كان أصدقاؤه منصرفين إلى علمهم ودرسهم فانقطع حتى عن زيارتهم . ولكنه كان طيب القلب ، سمح النفس ، عذب الحديث ، شديد الوفاء ، سريعاً إلى معونة أصدقائه ، منتظراً بهم إن تعسر الأداء .

فكانوا هم يذكرونه لأنهم كانوا يحبونه ، وكانوا هم يزورونه لأنهم كانوا يستمتعون بحديثه ويجدون اللذة فى محضره . ولم تطاوعه نفسه على فراق القاهرة ولا على ترك الربع . على أنه كان مستيئساً من العلم والدرجة ، فأقام حيث كان يدبر أمره أو يدبر له أمره وهو مقيم فى القاهرة ، لا هو بالطالب ولا هو بالفلاح ولكنه شىء بين ذلك . وما أكثر ما كان يزوره أقاربه وأهل قريته فيحملون إليه من طيبات الريف ما يسرع فيدعو أصدقاءه إلى المشاركة فيه ، أو يسرع فيحمله إليهم فى غرفاتهم . وقد أقام هؤلاء الطلاب ما أقاموا فى الربع لا يذكرون هذا الصديق إلا محبين له مثنين عليه . ثم تفرقوا وأخذ كل منهم طريقه ، وانقطعت عنهم أخباره ، ولكنهم ظلوا لا يذكرونه إلا أثنوا عليه .

وشخص آخر كان يقيم فى الربع ، ولكنه لم يكن يسكن فيه غرفة بعينها ولا يستقر منه فى مكان بعينه ، ولم يكن لقاؤه سهلا ولا التحدث إليه ميسوراً ، وإنما كان هؤلاء الشباب يتحدثون

عنه بين حين وحين حديثاً مخطوفاً سريعاً مهموساً يتبعه شيء من الضحك السريع الخفيف الذى كان يقطعه التحفظ والحياء .

وكان هذا الشخص يزور ولا يزار ، وكان لا يزور وحده إنما يزور ومعه شخص آخر . وكان لا يزور فى النهار ولا فى أول الليل ، ولا يزور فى اليقظة وإنما يزور فى أوساط الليل وفى أثناء النوم العميق.

وكانت زيارته حلوة البدء مرة العاقبة . وكانت زيارته تكلف الذين يلم بهم عناء ثقيلا ، ربما آذاهم فى أنفسهم ، ولكنه كان يؤذيهم فى علمهم وفى أجسامهم دائماً ، وكان يعرضهم للعلة أحياناً وللزكام فى كثير من الوقت ولا سيما فى الشتاء .

وكان هذا الشخص يسمى بين هؤلاء الشباب أبا طرطور . ولم يكن هذا الشخص غير الشيطان الذى كان يلم بأحدهم إذا جنه الليل وشمله النوم ، فإذا انصرف عنه أفاق الفتى مذعوراً ضيق النفس متأثماً متحرجاً ، وانتظر حتى يدنو الفجر ، فهب من فراشه عجلا وجلا حريصاً على أن يَطَّهَّر ليدرك درس الفجر . فأما فى الصيف فقد كان الأمر يسيراً محتملا ، وأى شيء أيسر وأحب من أن يغمس الفتى نفسه فى الماء البارد فى هذا المغطس أو ذاك من هذا المسجد أو ذاك ، أو أن يصب الفتى على جسمه مقداراً من الماء البارد يعم جسمه ويحقق شرائط الغسل كما فرضتها كتب الفقه ! ولكن الجهد كل الجهد والعذاب كل العذاب حين يلم

أبو طرطور بالفتى فى ليلة من ليالى الشتاء . هنالك لا يجد الفتى الوقت لإسخان الماء ، ولا يجد الوقت — وقد لا يجد النقد — للذهاب إلى حمام من هذه الحمامات العامة . وحسب أبى طرطور أن يضيع على الفتى وقته فأما أن يضيع عليه نقده فلا .

ولابد من الذهاب إلى الأزهر ، ولابد من الاستماع إلى الدرس ، ولابد من أن يكون الفتى طاهر النفس والجسم معاً . وإذاً فهو الماء البارد يصب على الجسم فى البيت صباً سريعاً ثم الخروج إلى الأزهر . والخير أن يغمس الفتى نفسه فى مغطس من مغاطس المساجد ؛ ذلك لا يكلفه شيئاً إلا البرد والرعشة . فالماء فى البيت يشترى ، وما ينبغى أن يُستنفد فى غير الشرب إلا أن تقضى بذلك الضرورة . ولابد من أن تحمل الضرورة نفسها على الاقتصاد .

وكان أبو طرطور ملحًّا فى زياراته على هؤلاء الشباب ، كأنما أقام فى أعلى سلَّم الربع مختفياً فى تلك الزاوية حيث لا يسمع ما كان الطلاب يدرسونه من العلم ويقرءونه من الكتب . فإذا انصرف الطلاب عن علمهم أو كتبهم وخلوا إلى ذلك الشيخ الذى كان يسكن أقصى الربع من شمال أو ذلك الكهل الذى كان يسكن أقصى الربع من يمين ، وثب أبو طرطور فدخل عليهم غرفتهم من حيث لا يرونه ولا يسمعونه ولا يحسونه ، ثم انسلَّ فمضى حتى ركب كتفى الشيخ أو كتفى الكهل أو تقمصه

وتحدث بصوته ولسانه إلى هؤلاء الشبان ، فأثار فى نفوسهم ورءوسهم هذه الخواطر المنكرة التى كانت تصرفهم عنها الكتب . فإذا تفرقوا عن شيخهم أو كهلهم ، وأووا إلى مضاجعهم وأغرقوا فى نومهم ، كان أبو طرطور قد اختار منهم فريسته فزاره زيارته المنكرة الآثمة .

وربما استخفى أبو طرطور فى زاويته تلك من أعلى السلم ، حتى إذا صعدت تلك الفتاة من الطبقة السفلى إلى الطبقة العليا تحمل إلى أحد هؤلاء الطلاب ثيابه غسيلة نظيفة ، أو تأخذ من أحد هؤلاء الطلاب ثيابه لتغسلها وتنظفها ، اعترضها أبو طرطور فسايرها لا يُرَى ولا يُسمع ولا يحس ، فلا تكاد تدخل على أحد هؤلاء الطلاب ، حتى يستحيل أبو طرطور نظرة تُلْقَى من طَرْف هذه الفتاة ، أو كلمة تجرى على لسانها ، أو ابتسامة ترتسم على شفتيها أو حركة تنبعث من أحد أعضائها .

ثم تنصرف الفتاة وينصرف معها أبو طرطور لم يُرَ ولم يسمع ولم يحس ، ولكنه مع ذلك قد ضرب للفتى موعداً حين يجنه الليل ويشمله النوم . وربما أمعن أبو طرطور فى البراعة وغلا فى المكر والكيد ، فلم يكلف نفسه الصعود إلى أعلى السلم ، وإنما اندسّ فى الطبقة السفلى ، واختلط بأولئك النساء اللاتى كن يختصمن أحياناً ويتضاحكن أحياناً ، ويتحدثن بأصوات مرتفعة يشكّلنها أشكالا مختلفة على كل حال ؛ فيستحيل أبو طرطور

إلى جوهر لطيف يجرى فى صوت من هـــذه الأصوات ، أو حركة من هذه الحركات ، ويرتفـــع هذا الصـــوت أو هذه حركة بأبى طرطور أو يرتفع هو بهذا الصوت أو بهذه الحركة ، حتى يبلغ الفتى فى الطبقة العليـــا ، وينصرف عنه لوقته وقد ألقى فى نفسه شرًّا خفيًّا وضرب له موعداً حين يجنه الليل ويشمله النوم .

وكذلك لم تكن حياة هؤلاء الطلاب فى ربعهم وفى أزهرهم صفواً كلها ، ولا علماً كلهـــا ، ولم تكن حياة الصبى بين هؤلاء الطلاب صفواً خالصاً ، ولا علماً خالصاً ، وإنما كان يلم بهم أبو طرطـــور فيحمل إليهم عذاباً حلواً مرًّا ، ويسمع الصبى من أحاديثهم ما كان يدعوه إلى التفكير .

١٢

على هذا الربع أقبل الصبي ، وفي هذه البيئة عاش . وأكبر الظن أن ما اكتسب فيهما من العلم بالحياة وشؤونها والأحياء وأخلاقهم لم يكن أقل خطراً مما اكتسبه في بيئته الأزهرية من العلم بالفقه والنحو والمنطق والتوحيد .

ولم يكد الصبي يستقر في ربعه يومين أو ثلاثة ، حتى أسلمه أخوه إلى أستاذ كان قد ظفر بالدرجة أثناء الصيف ، وكان سيبدأ الدرس ويجلس مجلس الأستاذ من صغار التلاميذ، لأول مرة في حياته . وكان قد بلغ الأربعين أو كاد يبلغها . وكان معروفاً بالتفوق مشهوراً بالذكاء ، قد غالب الحظ فغلبه ، وإن لم يكن انتصاره على الحظ ملائماً لحقه في الفوز ؛ فقد ظفر بالدرجة الثانية ، وعُدّ هذا انتصاراً ، وقصر عن الدرجة الأولى وعُدّ هذا ظلماً . وكان ذكاؤه مقصوراً على العلم ، فإذا تجاوزه إلى الحياة العملية فقد كان إلى السذاجة أدنى منه إلى أي شيء آخر . وكان يعرف بين أصدقائه الطلاب والعلماء بأنه محب لبعض لذاته المادية متهالك عليها ، يفرض عليه مزاجه ذلك ولا تفرضه عليه رذيلة أو فساد خلق مألوف . وكان كثير الأكل قد شهر بأنه يتهالك على اللحم ولا يستطيع أن ينقطع عن أكله والإسراف فيه

يوماً واحداً ، وكان ذلك يكلفه عناء كثيراً .

وكان إلى هذا غريب الصوت إذا تحدث . كان صوته متهدجاً متكسراً يقطّع الحروف تقطيعاً ، ويتراكم مع ذلك بعضه فوق بعض ، وتنفرج شفتاه عن كلامه أكثر مما ينبغي ، فلا يكاد يسمعه المتحدث إليه حتى يضحك ، ولا يكاد يمضي في الحديث معه حتى يقلد فتور صوته وتكسره وانفراج الشفتين عنه .

ولم يكد يظفر بدرجة العالمية حتى أسرع إلى شارة العلماء فاتخذها ولبس « الفراجية » متعجلا لُبْسها ، ولم يكن العلماء يتخذون هذه الشارة إلا بعد أن يبعد عهدهم بالدرجة وتعرف لهم في العلم سابقة وقَدْمة تيسر لهم حياتهم المادية شيئاً .

ولكن صاحبنا أسرع إلى « الفراجية » فلبسها وأضحك منه أصحابه من الطلاب وأساتذته من الشيوخ . وزادهم ضحكاً منه وتندراً عليه أنه كان يلبس الفرّاجية ويمشي حافياً في نعليه ، إن صح هذا التعبير لا يتخذ الجوارب عجزاً منه عنها أو زهداً منه فيها . وكان إذا مشى في الشارع تثاقل وتباطأ واصطنع وقار العلماء وجلال العلم ، فإذا خطا عتبة الأزهر ذهب عنه وقاره وفارقته أناته ولم يمش إلا مهرولا .

وقد عرف الصبي رجليه قبل أن يسمع صوته ؛ فقد أقبل على مكان درسه لأول مرة مهرولاً كما تعوّد أن يمشي ، فعثر بالصبي وكاد يسقط من عثرته ، ومست رجلاه العاريتان اللتان خشن

جلدهما يد الصبي فكادت تقطع . ثم مضى حتى جلس وأسند لأول مرة ظهره إلى ذلك العمود الذى تمنى أن يسند ظهره إليه معلماً .

وكان كغيره من أقرانه فى ذلك الوقت بارعاً فى العلوم الأزهرية كل البراعة ، ساخطاً على طريقة تعليمها سخطاً شديداً . قد بلغت تعاليم الأستاذ الإمام قلبه فأثرت فيه ، ولكنها لم تصل إلى أعماقه ؛ فلم يكن مجدداً خالصاً ولا محافظاً خالصاً ، وإنما كان شيئاً بين ذلك . وكان هذا يكفى لينظر الشيوخ إليه شزراً وليلاحظوه فى شىء من الريبة والإشفاق . ولم يكد يبدأ درسه الأول فى الفقه حتى أعلن إلى تلاميذه أنه لن يقرأ لهم كتاب « مراقى الفلاح على نور الإيضاح » كما تعود الشيوخ أن يقرءوا للتلاميذ المبتدئين ، ولكنه سيعلمهم الفقه فى غير كتاب بمقدار ما فى « مراقى الفلاح » . فعليهم إذاً أن يسمعوا منه ويفهموا عنه ، وأن يكتبوا ما يحتاجون إلى كتابته من المذكرات . ثم أخذ فى درسه فكان قيماً ممتعاً : وسار هذه السيرة فى درس النحو ، فلم يقرأ للتلاميذ « شرح الكفراوى » ، ولم يعلمهم الأوجه التسعة لقراءة بسم الله الرحمن الرحيم والاسم والفعل والحرف ؛ فكان درسه سهلا ممتعاً أيضاً .

وسئل الصبي أثناء شاى العصر عما سمع من أستاذه فى الفقه والنحو ، فلما أعاد على أخيه وأصحابه ما سمع رضيت الجماعة عن الشيخ وعن منهجه وأقرت طريقته فى التعليم . وجعل الصبي

يختلف إلى هذين الدرسين لا يتجاوزهما أياماً لا يذكر عددها ، ولكنه كان يسأل نفسه متى ينتسب إلى الأزهر ويصبح طالباً مقيداً فى سجلاته ؛ فلم يكن فى هذه الأيام إلا صبيًّا يستمع إلى هذين الدرسين استماعاً منظماً محتوماً ، ويستمع إلى درس الحديث الذى كان يلقى بعد صلاة الفجر لا لشىء إلا لأنه كان ينتظر أن يفرغ أخوه من درس الأصول وأن يحين الوقت الذى يبدأ فيه درس الفقه .

وقد أقبل اليوم المشهود ، فأنبئ الصبى بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان فى حفظ القرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر . ولم يكن الصبى قد أنبئ بذلك من قبل ، فلم يتهيأ لهذا الامتحان . ولو قد أنبئ به لقرأ القرآن على نفسه مرة أو مرتين قبل ذلك اليوم ، ولكنه لم يفكر فى تلاوة القرآن منذ وصل إلى القاهرة . فلما أنبئ بأنه سيمتحن بعد ساعة خفق قلبه وجلا ، وسعى إلى مكان الامتحان فى زاوية العميان خائفاً أشد الخوف مضطرب النفس أشد الاضطراب ، ولكنه لم يكد يدنو من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة ، وامتلأ قلبه حسرة وألماً ، وثارت فى نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط ؛ فقد انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذى كان أمامهما ، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التى وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع : « أقبل يا أعمى » .

ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه فى غـــير رفق وقاده إلى الممتحنين فى غير كلام ، لما صدق أن هذه الدعوة قد سيقت إليه ؛ فقد كان تعوّد من أهله كثيراً من الرفق به وتجنباً لذكر هذه الآفة بمحضره . وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يشغل قط عن ذكرها . ومع ذلك فقد جلس أمام الممتحنين وطلب إليه أن يقرأ سورة الكهف ، فلم يكد يمضى فى الآيات الأولى منها حتى طلب إليه أن يقرأ سورة العنكبوت ، فلم يكد يمضى فى الآيات الأولى منهـــا حتى قال له أحد الممتحنين : « انصرف يا أعمى فتح الله عليك » .

وقد دهش الصبى لهذا الامتحان الذى لا يصور شيئـــاً ولا يدل على حفظ . وقد كان ينتظر على أقل تقدير أن تمتحنه اللجنة على نحو ما كان يمتحنه أبوه الشيخ . ولكنه انصرف راضياً عن نجاحه ، ساخطاً على ممتحنيه ، محتقراً لامتحانهما . ولم يخرج من زاويـــة العميان قبل أن يعطف به أخوه على بعض أركانها ، فتلقاه هناك أحد الفراشين ، أو أحد « المشدين » بلغة ذلك الوقت ، فأخذ ذراعه اليمنى ، وأدار حول معصمه سواراً من الخيط جمع طرفيه بقطعة مختومة من الرصاص ، وقال له : انصرف فتح الله عليك .

ولم يفهم الصبى لهذا السوار معنى ، ولكن أخاه أنبأه بأن هذا السوار سيظل حول معصمه أسبوعاً كاملا حتى يمر أمام الطبيب الذى سيمتحن صحته ويقدر سنه ويطعمه التطعيم الواقى من الجدرى .

وقد كان الصبي خليقاً أن يبتهج بهذا السوار الجديد الذى كان يدل على أنه مرشح للانتساب إلى الأزهر ، قد جاز المرحلة الأولى من مراحله ، لولا أنه ظل مشغولا عن السوار بدعوة الممتحن له وصرفه إياه . وأنفق أسبوعه كما تعود أن ينفق أيامه ، مستيقظاً على صوت عمى الحاج على ، ذاهباً إلى الأزهر مع الفجر ، عائداً منه بعد درس الفقه ، ثم ذاهباً إلى الأزهر مع الظهر ، ثم راجعاً منه بعد درس النحو ، ثم مقيماً فى مجلسه ذاك ، فنائماً فى مجلسه ذاك ، فغادياً على الأزهر حين يسمع نداء المؤذن بأن الصلاة خير من النوم .

وجاء يوم الامتحان الطبى ، فذهب إليه الصبى وفى نفسه شىء من الإشفاق أن يدعوه الطبيب كما دعاه الممتحن . ولكن الطبيب لم يدعه لأنه لم يكن يدعو أحداً ، وإنما دفعه أخوه إلى الطبيب دفعاً ، فأخذ ذراعه وخط فيها خطوطاً ، وقال : « خمسة عشر » ، وانتهى الأمر عند هذا الحد . وأصبح الصبى طالباً منتسباً إلى الأزهر ، ولم يكن قد بلغ السن التى ذكرها الطبيب والتى لم يكن بد منها لصحة الانتساب ، وإنما كان فى الثالثة عشرة من عمره ، وقد حل السوار عن معصمه وعاد إلى غرفته وفى نفسه شك مؤلم لذيذ فى أمانة الممتحنين وفى صدق الطبيب .

١٣

وكانت هذه الحياة شاقة على الصبى وعلى أخيـــه معاً . فأما الصبى فقد كان يستقل ما كان يقدّم إليه من العلم ويتشوق إلى أن يشهد أكثر مما كان يشهد من الدروس ، ويبدأ أكثر مما كان قد بدأ من الفنون . وكانت وحدته فى الغرفة بعد درس النحو قد ثقلت عليه حتى لم يكن يستطيع لها احتمالا ، وكان يود لو استطاع الحركة أكثر مما كان يتحرك والكلام أكثر مما كان يتكلم . وأما أخوه فقد ثقل عليه اضطراره إلى أن يقود الصبى إلى الأزهر وإلى البيت مصبحاً وممسياً . وثقل عليــه أيضاً أن يترك الصبى وحده أكثر الوقت ، ولم يكن يستطيــع أن يفعــل غير هذا ؛ فلم يكن من الممكن ولا من الملائم لحياته ودرسه أن يهجر أصدقاءه ويتخلف عن دروسه ويقيم فى تلك الغرفة ملازماً للصبى مؤنساً له .

ولم يتحدث الصبى بذات نفسه إلى أحد ، ولم يتحدث أخو الصبى إليه بذات نفسه أيضاً . وأكبر الظن أنه تحدث بذلك إلى أصدقائه غير مرة . ولكن المشكلة بلغت أقصاها ذات ليلة

وانتهت إلى الحل بعد ذلك دون أن يقول الصبي لأخيه شيئاً أو أن يقول له أخوه شيئاً .

دعيت الجماعة ذات يوم إلى أن تسمر عند صديق لها سوري لا يسكن الربع ولا يسكن الحي . وقبلت الجماعة دعوة الصديق ، ومضى اليوم كما تعودت الأيام أن تمضي . وذهبت الجماعة إلى درس الأستاذ الأمام ثم عادت منه بعد صلاة العشاء ، ليتخفف كل واحد منها مما كان يحمل من محفظته وأوراقه .

وهيأ الشيخ الفتى أخاه الصبي لنومه كما كان يفعل كل ليلة ، وانصرف عنه بعد أن أطفأ المصباح كما كان ينصرف كل ليلة . ولكنه لم يكد يبلغ الباب حتى كان الحزن قد غلب الصبي على نفسه فأجهش ببكاء كظمه ما استطاع ، ولكنه وصل في أكبر الظن إلى أذن الفتى ، فلم يغير رأيه ولم يصرفه عن سمره ، وإنما أغلق الباب ومضى في وجهه . وأرضى الصبي حاجة نفسه إلى البكاء ثم عاد إليه اطمئنانه شيئاً فشيئاً ، ومثل قصته التي كان يمثلها في كل ليلة ، فلم يستسلم إلى النوم إلا بعد أن عاد أخوه . ولكنه أصبح فإذا أخوه يقدم إليه بعد درس الفقه وبعد أن أفطر ألواناً من الحلوى كان قد اشتراها له في طريقه إلى العودة من سمره . وقد فهم الصبي عن أخيه وفهم أخوه عنه ، فلم يقل أحدهما لصاحبه شيئاً .

ومضى يوم ويوم آخر ، وأخـــذ الشيخ الفتى كتاباً من الحاج فيروز ففضه ونظر فيه ثم قال لأخيه وقد وضع يده على كتفـــه ، وامتلأ صوته حناناً ورفقاً : « لن تكون وحدك فى الغرفة منذ غد ، فسيحضر ابن خالتك طالباً للعلم ، وستجد منه مؤنساً ورفيقاً » .

١٤

وكان ابن خالته هذا رفيق صباه ، وكان له صديقاً وعنده أثيراً ، وكان كثيراً ما يهبط من بلدته فى أعلى الإقليم لزيارة الصبى ، فينفق معه الشهر أو الأشهر ، يختلفان معاً إلى الكتاب فيلعبان وإلى المسجد فيصليان ، ثم يعودان مع الأصيل إلى البيت فيقرآن فى كتب القصص والسمر ، أو يمضيان فى ألوان من العبث أو يخرجان للنزهة عند شجيرات التوت التى كانت تقوم على حافة الإبراهيمية . وكانا كثيراً ما أدارا بينهما ألواناً من الأمانى والأحلام . وكانا قد تعاهدا على أن يذهبا معاً إلى القاهرة ويطلبا العلم معاً فى الأزهر .

وكثيراً ما هبط ابن خالته من مدينته فى أعلى الإقليم فى آخر الصيف وقد أعطته أمه نقوداً وأعدت له زاداً وودعته على أنه سيذهب مع ابن خالته إلى القاهرة ليطلبا فيها العلم معاً . ولكنه كان يشارك صديقه فى الانتظار ثم فى الغضب ثم فى الحزن والبكاء ؛ لأن الأسرة رأت أو لأن الشيخ الفتى رأى أن الوقت لم يئن لذهابهما إلى القاهرة . ثم كانا يفترقان ويعود الصديق إلى أمه محزوناً كئيباً .

فلا غرابة فى أن يقع هذا الخبر من نفس الصبى موقعاً حسناً .

ولا غرابة فى أن يقضى الصبى مساءه راضيـــاً مبتهجاً لا يفكر إلا فى غد . وقد أقبـــل الليل وملأ الغرفة بظلمته ، ولـــكن الصبى لم يسمع للظلمة فى تلك الليلة صوتاً ولا حديثاً . وأكبر الظن أن حشرات الغرفة قد لعبت كما كانت تفعـــل فى كل ليلة ، ولكن الصبى لم يسمع لها صوتاً ولم يحس لها حركة .

وقد أرِق الصبى ليلته كلها ، ولكنه كان أرقاً فرحاً مبتهجاً ، فيه كثير من تعجل الوقت واستبطاء الصبـــح . وقد ذهب الصبى إلى درس الحديث فسمع صوت الشيخ وهو يتغنى بالسند والمتن ، ولكنه لم يلق إلى الشيـــخ بالا ، ولم يفهم عنه شيئاً . وذهب بعد ذلك إلى درس الفقه فاستمع له لأنه لم يجد عن ذلك بدّاً ، فقـــد كان أخوه أوصى به الشيخ ، وكان الشيخ يحاوره ويناظره ويضطره إلى أن يسمع له ويفهم عنه . ثم عاد الصبى إلى الغرفة فى الضحى فأنفق وقته هادئاً قلقاً .

هادئاً فى ظاهر الأمر ؛ فقد كان يكره كل الكره أن يظهر أخوه أو أصحابه على أن شيئاً من أمره قد تغير قليلا أو كثيراً . وقلقاً فى دخيلة نفسه يتعجل الوقت ويستبطئ العصر الذى سيصل فيه القطار إلى محطة القاهرة .

وقد دعا المؤذن بصلاة العصر آخر الأمر ، ولم يبق بين الصبى وابن خالته إلا هذا الوقت القصير الذى تقطع فيـــه عربة من عربات النقل هـــذه المسافة بين المحطة وبين الحى ، سالكة باب

البحر فباب الشعرية منتهية إلى هذا الباب الذى ستنعطف نحوه ، فتمر بين دخان القهوة وقرقرة الشيشة .

وهاتان قدمان تضربان أرض الربع لا يتردد الصبي فى معرفتهما ، وهذا ابن خالته يقبل فيلقى عليه سلاماً ضاحكاً ، ثم يعتنقان ضاحكين ، وهذا سائق العربـة يتبعه وقد حمل ما أرسلتـه الأسرة إلى الطالبين من الطُّرَف والزاد . ومن المحقـق أن العشاء سيكون دسماً هذه الليلة ، وأن الأصدقاء جميعاً سيشاركون فيـه ، وأن الصبيين لن يخلوا لأنفسهما وأحاديثهما إلا حين يذهب القـوم ليشهدوا درس الأستاذ الإمام .

ولكن من المحقق أيضاً أن حياة الصبي قد تغيرت كلهـا منذ ذلك اليوم ، فذهبت عنه العزلة حتى رغب فيها أحياناً ، وكثر عليه العلم حتى ضاق به أحياناً أخرى .

١٥

وأيسر ما تغير من حياته المادية أنه هجر مجلسه من الغرفة على البساط القديم الذى بسط على الحصير البالى العتيق ، فلم يعرفه إلا حين كان يجلس للإفطار أو للعشاء ، وحين كان يأوى إلى مضجعه حين يتقدم الليل ؛ وإنما كان يقضى يومه كله أو أكثره فى الأزهر ، وفيما حوله من المساجد التى كان يختلف فيها إلى بعض الدروس . فإذا عاد إلى « الربع » لم يدخل الغرفة إلا ليتخفف من عباءته ، ثم يعود فيخرج منها ليجلس مع صاحبه على فراش ضيق من اللبد قد فرش أمامها وأخذ أكثر الطريق على المارة فلم يُخل لهم منه إلا موضع أقدام الرجل الواحد أو الرجلين .

وفى هذا المجلس كان الصبيان يلهوان بالحديث قليلا وبالقراءة كثيراً . وقد يفرغان لما كان يجرى فى الطبقة السفلى من حركة وحديث ، يسمع أحدهما ، ويرى الآخر ويفسر لصاحبه ما لا يرى .

وكذلك عرف الصبى الربع أكثر مما كان يعرفه ، وعرف من شؤون أهله أكثر مما كان يعرف ، وسمع من أحاديثهم أكثر مما كان يسمع ، عاش جهرة بعد أن كان يعيش سرًّا . ولكن حياته الخصبة الممتعة منذ أقبل عليه صديقه لم تكن فى الغرفة ولا فى

الربع ، وإنما كانت فى الأزهـــر نفسه . فقد استراح الصبى من درس الفجر وتلبّث فى غرفته حتى يدنوا درس الفقـــه ، فكان يستمتع إذاً مع صديقه بصوت الشيـــخ الموسوس حين كان يقيم الصلاة فى كل يوم ، بعد أن كان لا يستمتع بهذا الصوت إلا يوم الجمعة من كل أسبوع .

فإذا حان وقت الدرس خرج مع صاحبه إلى الأزهر ، فسلكا الطريق نفسها التى كان يسلكها مع أخيه ، ولكنهما يسلكان هذه الطريق متحدثين بالجد مرة وبالهزل مرة أخرى . وقد ينحرفان عن حارة الوطاويط تلك القذرة ، إلى شارع خان جعفر ذلك النظيف ، ويخلصان على كل حال إلى شارع سيدنا الحسين . والغريب أن الصبى تعوّد منذ أقبل صديقه عليه ألا يمر بمسجد سيدنا الحسين ولا يدخله إلا قرأ الفاتحة . عوّده صديقه هذه العادة فدأب عليها . وقد تقدمت به السن واختلفت عليه أطوار الحياة ، وما يذكر أنه مر بمسجد سيدنا الحسين إلا قرأ فى نفسه هذه السورة الكريمة من سور القرآن .

وكان أخو الصبى قد خصص له ولصاحبه مقداراً يسيراً جداً من النقد ثمناً لإفطارهما ، على أن يأخذا بعـــد درس الفقه جراية الشيخ الفتى من رواق الحنفية ، وكانت أربعة أرغفة ، فيأكلان منها رغيفين إذا أفطرا ويحفظان منها رغيفين للعشاء . ومع أن هذا المقدار الذى خصص لهما من النقـــد قد كان يسيراً ضئيلا

لا يتجاوز القرش الواحد فى كل يوم ، فقــد عرفا كيف يحتالان وكيف يقتصدان ليمتعا أنفسهما ببعض ما كانت نفوسهما تتوق إليه من طرائف الطعام والشراب . وما يمنعهما أن يغدوا ذات صباح مع الطير ، فإذا تجاوزا ذلك البــاب المقفل من فجوته الضيقة ، واستدارا ليأخذا طريقهما نحو الأزهر ، وقفا عند بائع البليلة فأخذ كل منهما قدراً من هذا الطعام الذى كان يحبانه أشد الحب ، لكثرة ما أكلا منه فى الريف ، ولكثرة ما كان يوضع عليه من السكر الذى يختلط بحباته الغلاظ ويذوب فى مائه الشديد الحرارة جداً ، فلا يكادان يسيغانه حتى يطرد عنهما بقية النوم ، ويشيع فى جسميهما النشاط ويثير فى أفواههما وأجوافهما لذة كانا يقدرانها قدرها ، ويهيئهما تهيئة صالحة لدرس الفقه ، يسمعان لحديث الشيخ وقد عمرت بطونهما ورءوسهما معاً .

وما يمنعهما إذا كانا فى شارع سيدنا الحسين أن يعطفا على هذا البائع أو ذاك فيجلسا على مجلس ضيق من الخشب قد ألقى عليه حصير ضيق أحياناً ، ولم يلق عليه شىء أحياناً أخرى ، ولكنه كان وثيراً على كل حال ؛ لأن الجلوس عليه كان يصحبه انتظار لذة كان يحبانها ويقدرانها ، لذة هذا التين المرطب الذى يقدم إليهما فى إناء صغير ، فيلتهمانه التهاماً ثم يعبّان فى مائه عبّاً ، ثم يأكلان ما كان تحته من زبيب فى أناة وهدوء ! وما يمنعهما حين يعودان قبل العصر أو بعيده أن يجورا على ثمن العشاء فيقفا

عند بائع الهريسة أو بائع البسبوسة ويرضيا لذتهمـا البريئة إلى هذا اللون من الحلوى أو ذاك ! وليس على إفطارهما ولا على عشائهما بأس .

فأما الإفطار فقد كان أمره يسيراً جداً : زيارة لبائع من هؤلاء الباعة الذين كانوا يعرضـون الفول النابت ، ومعهمـا رغيفاهما وهما يدفعان إلى هذا البائع مليمين ونصف مليم ، وقـد اشتريا بنصف مليم حزمة أو حزمتين من كراث ، وهذا البائع يقبل عليهما بإناء ضخم عميق قد امتلأ مرقاً وسبحت فيه حبات من الفول وألقى عليه قليل من الزيت ، فهما يغمسان خبزهما فى المرق ، ويتصيدان ما تيسر من حب ، ويلتهمان ما تحمله يدهما اليسرى إلى أفواههما من الكراث . . . وما يبلغان آخر الرغيف وآخر الكراث حتى يبلغا حظهمـا من الطعام وقد امتلآ حتى كادا يكتظان . ولكن فى الإناء بقية من مرق ، فـكان الصبى يستحيى أن يجيب صاحبه إلى ما يعرض عليـه من شرب هـذا المرق . وكان صاحبه يضحك منه ويرفع الإناء فيعب فيـه حتى يرده إلى البائع نظيفاً .

فقد أفطرا إذاً ولم ينفقا أكثر من ثلاثة مليمات ، وقد غنما ما طعما قبل الدرس . وما عليهما الآن إلا أن يعودا إلى الأزهر ليرضيا عقولهما بعد أن رضيت أجسامهما . وكان الصبى قد حرص كل الحرص على أن يواظب على درس شيخه المجدد المحافظ

فى الفقه والنحو ، طاعة لأخيه من جهة وإرضاء لنفسه من جهة أخرى . ولكنه كان شديد الطمع فى أن يسمع لغير هذا الشيخ ، وأن يذوق غير هذين اللونين من ألوان العلم . وقد أتيح له ذلك فى غير مشقة ولا جهد بفضل هذه الدروس التى كانت تلقى فى الضحى بعد أن يفرغ الطلاب من إفطارهم . وقد قرر الصديقان أن يحضرا شرح الكفراوى وكان يلقى فى الضحى من كل يوم ، يلقيه شيخ جديد ولكنه قديم . جديد فى الدرجة ، قديم فى الصلة بالأزهر . قد تقدمت به السن وطال عليه الطلب حتى ظفر بدرجته ، وبدأ كما كان يبدأ أمثاله بقراءة « شرح الكفراوى » .

وكان الصبى يسمع من شيخه الأول ومن أخيه وأصحابه عبثاً كثيراً بشرح الكفراوى ، وسخطاً كثيراً عليه ، فكان ذلك يغريه به ويرغبه فيه .

وما هى إلا أن يحضر الدرس الأول ويسمع الأوجه التسعة فى قراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها حتى يفتن بهذا اللون من العلم ويكلف به أشد الكلف ، وإذا هو يواظب مع صاحبه فى دقة على هذا الدرس من دروس النحو ، ويواظب فى دقة أيضاً على درسه القديم . وكان يرى أنه يتعلم النحو فى درسه القديم ، وأنه يلهو بالنحو فى درسه الجديد . وكان يلهو فى درسه الجديد حقاً ، يلهو بهذا الإعراب المتصل الذى ألح فيه الشارح على المتن إلحاحاً شديداً . ويلهو خاصة بالشيخ الذى كان يقرأ متنه

وشرحه ويفسر ما يقرأ فى صوت غريب مضحك حقًّا . لم يكن يقرأ وإنما كان يغنى . ولم يكن غناؤه يصعد من صدره ، وإنما كان يهبط من رأسه . وكان صوته قد جمع بين خصلتين متناقضتين ، فكان أصم مكظوماً ، وكان ممتدًّا عريضاً .

وكان الشيخ على ذلك من أهل الصعيد أو قل من أقصى الصعيد ، وكان قد احتفظ بلهجته الإقليمية لم يغير منها شيئاً لا فى الكلام ولا فى القراءة ولا فى الغناء . وكان الشيخ على هذا كله غليظ الطبع ، يقرأ فى عنف ، ويسأل الطلاب ويرد عليهم فى عنف . وكان سريع الغضب ، لا يكاد يسأل حتى يشتم ؛ فإن ألح عليه السائل لم يُعْفِه من لكمة إن كان قريباً منه، ومن رمية بحذائه إن كان مجلسه منه بعيداً . وكان حذاء الشيخ غليظاً كصوته جافياً كثيابه ؛ فلم يكن يتخذ العباءة ، وإنما كان يتخذ « الدفية » . كان حذاء الشيخ غليظاً جافياً ، وكانت نعله قد ملئت بالمسامير ، وكان ذلك أمتن للحذاء وأمنع له من البلى . ففكّر فى الطالب الذى كانت تصيبه مسامير هذا الحذاء فى وجهه أو فيما يبدو من جسمه !

ومن أجل هذا أشفق الطلاب من سؤال الشيخ وخلّوا بينه وبين القراءة والتفسير والتقرير والغناء . ومن أجل ذلك لم يضع الشيخ وقته ولا وقت الطلاب . بدأ سنته الدراسية بشرح الكفراوى ، ولم تنته هذه السنة حتى كان قد أتم شرح الشيخ خالد .

فقرأ الطلاب فى سنة دراسية واحدة كتابين ، على حين لم يكن غيرهم يقرءون مع غير هذا الشيـــخ إلا كتاباً واحداً ، وعلى حين لم يكن ذلك الشيخ المجدد المحافظ قد تجاوز بطلابه القليلين الأبواب الأولى من النحو .

وكان لهذا كله أثره فى حياة الصبى النحوية ، إن صح هذا التعبير . فقد قضى إجازة الصيف وعاد إلى القاهرة ، فلم ير شيخه المحافظ المجدد ، وإنما سلك طريق غيره من الأزهريين ، فحضر فى الفقه شرح الطائى على الكنز ، وحضر فى النحو حاشية العطار على شرح الأزهرية . ولكن من الخير ألا نتعجل الحوادث وأن نبقى مع صاحبنا فى سنته الأولى .

كان إذن يفرغ من درس الضحى فينتقل إلى درس الظهر ، ثم يعود إلى غرفته فيقرأ مع صاحبه مطالعاً دروس غد كما كان يفعل أصحاب الجد من الطلاب ، أو متنقلا بين كتب مختلفة يفهم عنها أو لا يفهم . فإذا دعيت الشمس إلى غروبها أقبل الصديقان على عشائهما ، وكان يختلف رقة وغلظاً باختلاف ما بقى لهما من نقد . فإن كان قد بقى لهما نصف القرش قسماه نصفين ، فاشتريا بنصفه شيئاً من الحلاوة الطحينية وبنصفه الآخر شيئاً من الجبن الرومى ، وأقبلا على عشاء مترف لذيذ يجمعان فيه على اللقمة الواحدة قطعة من الجبن وقطعة من الحلاوة ، ويريان لهذا المزاج الغريب طعماً لذيذاً . وإن كانت البليلة أو التين قد أسرفا عليهما

فى نقدهما فلم يبق لهما منه إلا ربع القرش ، اشتريا بما بقى لهما شيئاً من الطحينة ثم صبَّا عليه شيئاً من عسل أسود أو أبيض كان يأتيهما من الريف ، ثم أقبلا على عشاء ليس بالفخم ، ولكنه لا بأس به .

فإن جارت البليلة أو التين أو كلاهما على نقدهما فلم يبقيا منه شيئاً ، فليس عليهما من بأس ، لقد حفظا رغيفيهما ، وفى الغرفة هذه الصفيحة أو تلك ، فى هذه العسل الأسود ، وفى تلك العسل الأبيض ، فليأخذا من هذا العسل شيئاً وليغمسا فيه رغيفيهما ، فذلك يجزئ عما كانا يجدان فى الحلاوة والجبن والطحينة من ترف .

وربما أباحا لأنفسهما على هـــذا البؤس شيئاً من ترف فغمسا رغيفهما الأول وقد اقتسماه فى العسل الأسود ، ثم غمسا رغيفهما الثانى وقد اقتسماه أيضاً فى العسل الأبيض .

وقد جعلت الشمس تسرع إلى غروبها ، وكاد المؤذن يصعد إلى مئذنته ، فليسرع الصديقان إذاً إلى الأزهر ، فهما يحضران درساً بعد صلاة المغرب كما يفعل أولئك الطلاب الكبار . هما يحضران درساً فى المنطق ، يحضران متن السلّم للأخضرى . ومن الحق أنهما كانا يحضران هذا الدرس على شيخ كان يرى نفسه عالماً وإن لم يعترف له الأزهر بالعالمية . طال عليه الوقت ، واشتد إلحاحه فى طلب الدرجة فلم يظفر بها ، ولكنه لم ييأس منها ولم يرض بحكم الممتحنين فيه ، فجعل يطاولهم من جهة ، ويغيظهم من

جهة أخرى . يطاولهم بحضور الدرس والتقدم للامتحان ، ويغيظهم بالجلوس إلى أحد الأعمدة إذا صليت المغرب ومن حوله جماعة من الطلاب وهو يقرأ لهم كتاباً فى المنطق كما يقرأ العلماء الممتازون ؛ فلم يكن يهجم على تعليم المنطق إلا هؤلاء العلماء الممتازون .

ومن الحق أن ذلك الطالب الشيخ لم يكن بارعاً فى العلم ولا ماهراً فى التعليم ، وأن جهله وعجزه كانا يظهران حتى لهؤلاء التلاميذ المبتدئين . ومن الحق أنه كان من أقصى الصعيد ، وكان محتفظاً بلهجته كما عرفها قبل أن يقبل على الأزهر ، ولم يكن يغير منها شيئاً فى قراءته وحديثه .

ومن الحق آخر الأمر أنه كان سريع الغضب شديد الحدة ، ولكنه لم يكن يشتم التلاميذ ولا يضربهم ، أو لم يكن يجرؤ على شتم التلاميذ وضربهم ؛ فما ينبغى ذلك إلا للعالم حقاً وصدقاً ، الذى نال الدرجة ، ونال معها الإذن الضمنى بشتم التلاميذ أو ضربهم .

كل هذا كان حقاً ، وكل هذا سمعه الصديقان من أولئك الطلاب الكبار ، ولكنه لم يمنعهما من حضور الدرس والمواظبة عليه ، ليقولا لأنفسهما إنهما يدرسان المنطق ، وليقولا لأنفسهما إنهما يذهبان إلى الأزهر بعد صلاة المغرب ويعودان منه بعد صلاة العشاء ، كما يفعل الطلاب الكبار المتقدمون .

وما أسرع ما انقضت السنة الأولى ! وما أسرع ما ختمت

دروس الفقه والنحو ! وما أسرع ما دعى التلاميذ إلى التفرق ثم إلى الرحيل إلى حيث ينفقون الصيف بين أهلهم فى المدن والقرى ! وما أشد ما كان الصبى يتشوق إلى هذه الإجازة ويتحرق حنيناً إلى الريف !

ولكن الإجازة قد أقبلت ، وإذا هو يريد أن يمتنع عن الرحيل وأن يبقى فى القاهرة . أكان صادقاً فى هذا التمنع ؟ أم كان متكلفاً له ؟ كان صادقاً وكان متكلفاً معاً .

كان صادقاً لأنه أحب القاهرة وكلف بها وشق عليه فراقها وقد كره الرحيل دائماً . وكان متكلفاً ، فقد كان أخوه يقضى أكثر إجازاته فى القاهرة ، وكانت الأسرة تكبر منه ذلك وتراه آية جد واجتهاد . وكان يريد أن يصنع صنع أخيه ، وأن يظن به ما كان يظن بأخيـــه . ولكن تمنّعه لم يغن عنه شيئاً . وها هو ذا يركب مع صاحبه عربة من عربات النقل ومعهما ثيابهما قد لُفّتْ فى حزمتين وقد بلغا المحطة ، وأخذت لهما تذكرتان ثم دفعتا إليهما ، ثم وُضعا فى عربة مزدحمة من عربات الدرجة الثالثة ، ثم تحرك القطار ، ولم يكد يمضى قليلا ويبلغ محطة بعد القاهرة أو محطتين حتى نسى الصديقـــان أزهرهما وقاهرتهمـــا وربعهما ، ولم يذكرا إلا شيئاً واحداً هو الريف ، وما سيكون فيه من لذة ونعيم .

١٦

وكانت العشاء قد صليت حين نزل الصبيان من القطار ، فلم يجدا فى المحطة أحداً . فأنكرا ذلك شيئاً ، ولكنهما وصلا إلى الدار ، فإذا كل شيء كان يجرى فيها كما كانت تجرى الأمور فى كل يوم . قد فرغت الأسرة من عشائها منذ وقت طويل ، وأتم الشيخ صلاته ثم خرج كعادتـــه فجلس مع أصحابه غـــير بعيد من الدار ، وتناوم الصبية . وجعلت أختهم الصغرى تحملهم واحـــداً واحداً إلى مضاجعهم . واضطجعت أم الصبى على فراش من اللبد تحت السماء تستريح ، والنوم يلم بها ثم ينصرف عنها ، ومن حولها بناتها قد جلسن يتحدثن كعادتهن فى كل ليلة ، حتى يقضى الشيخ سمره القصير ثم يعود إلى الدار ، فتأوى الأسرة كلها إلى مضاجعها . ويشمل الدار سكون وهدوء لا يقطعهما إلا تنابح الكلاب وتصايح الديكة فى داخل الدار وفى أطراف القرية .

فلما دخل الصبيان وجمت الأسرة لدخولهما ولم تكن قد أنبئت بعودتهما ، فلم تعد لهما عشاء خاصاً ، ولم تنتظرهما بالعشاء المألوف ، ولم ترسل أحداً لتلقيهما عند نزولهما من القطار .

وكذلك أضيع على الصبى ما كان يدير فى نفسه من الأمانى ،

وما كان يقدّر من أنه سيستقبل كما كان يستقبل أخوه الشيخ فى ابتهاج وحفاوة واستعداد عظيم . على أن أمه نهضت فقبلته ، ونهضت إليه أخواته فضممنه إليهن ، وقدّم إليه وإلى صاحبه عشاء كعشائهما فى القاهرة . وأقبل الشيخ فأعطى ابنه يده ليقبلها ثم سأله عن أخيه فى القاهرة . وأوت الأسرة كلها إلى مضاجعها ، ونام الصبى فى مضجعه القديم ، وهو يكتم فى صدره كثيراً من الغيظ وكثيراً من خيبة الأمل أيضاً .

ومضت الحياة بعد ذلك فى الدار والقرية كما كانت تمضى قبل أن يذهب الصبى إلى القاهرة ويطلب العلم فى الأزهر ، كأنه لم يذهب إلى القاهرة ولم يجلس إلى العلماء ولم يدرس الفقه والنحو والمنطق والحديث ، وإذا هو مضطر كما كان يضطر من قبل إلى أن يلقى « سيدنا » بالتحية والإكرام ، ويقبل يده كما كان يفعل من قبل ، ويسمع منه كلامه الفارغ الكثير كما كان يسمعه من قبل . وإذا هو مضطر إلى أن يذهب بين وقت وآخر إلى الكتاب لينفق الوقت ، وإذا التلاميذ يلقونه كما كانوا يلقونه قديماً ، لا يكادون يشعرون بأنه غاب عنهم ، ولا يكادون يسألونه عما رأى أو سمع فى القاهرة ، ولو قد سألوه لخبرهم بالكثير .

وأكثر من هذا كله أنه لم يقبل أحد من أهل القرية على الدار ليسلم على الصبى الشيخ بعد أن عاد إليها وقد غاب عنها سنة دراسية كاملة ، وإنما كان يلقاه منهم هذا الرجل أو ذاك ،

فيلقى عليه فى فتور وإعراض هذا السؤال : ها أنت ذا ؟ أعدت من القاهرة ؟ كيف أنت ؟ ثم يلقى عليه هذا السؤال الآخر معنيًّا به رافعاً به صوته : وكيف تركت أخاك الشيخ ؟

وقد استقر إذن فى نفس الصبي أنه ما زال ، كما كان قبل رحلته إلى القاهرة ، قليل الخطر ضئيل الشأن لا يستحق غناية به ولا سؤالا عنه . فآذى ذلك غروره ، وقد كان غروره شديداً ، وزاده ذلك إمعاناً فى الصمت وعكوفاً على نفسه وانصرافاً إليها .

ولكنه لم يكد يقضى أياماً بين أسرته وأهل قريته حتى غيَّر رأى الناس فيه ولفتهم إليه ، لا لفت عطف ومودة ، ولكن لفت إنكار وإعراض وازورار . فقد احتمل من أهل القرية ما كان يحتمل قديماً يوماً ويوماً وأياماً . ولكنه لم يطق على ذلك صبراً ، وإذا هو ينبو على ما كان يألف ، وينكر ما كان يعرف ، ويتمرد على من كان يظهر لهم الإذعان والخضوع . كان صادقاً فى ذلك أول الأمر ، فلما أحس الإنكار والازورار والمقاومة ، تكلف وعاند وغلا فى الشذوذ . سمع « سيدنا » يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه فى العلم والدين ، وببعض تمجيده لحفظة القرآن وحملة كتاب الله ، فأنكر عليه حديثه ورد عليه قوله ، ولم يتحرج من أن يقول : هذا كلام فارغ . فغضب « سيدنا » وشتمه ، وزعم أنه لم يتعلم فى القاهرة إلا سوء الخلق ، وأنه أضاع فى القاهرة تربيته الصالحة .

وغضبت أمه وزجرته ، واعتذرت إلى « سيدنا » وقصت الأمر على الشيخ حين عاد ، فصلى المغرب وجلس للعشاء ، فهز رأسه وضحك ضحكة سريعة فى ازدراء للقصة كلها وشماتة « بسيدنا » ؛ فلم يكن يحب « سيدنا » ولا يعطف عليه .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لاستقامت الأمور ، ولكن صاحبنا سمع أباه يقرأ دلائل الخيرات كما كان يفعل دائماً إذا فرغ من صلاة الصبح أو من صلاة العصر ، فرفع كتفيه وهز رأسه ثم ضحك ، ثم قال لإخوته : إن قراءة الدلائل عبث لا غناء فيه .

فأما الصغار من إخوته وأخواته فلم يفهموا عنـــه ولم يلتفتوا إليه ، ولكن أخته الكبرى زجرته زجراً عنيفاً ورفعت بهذا الزجر صوتها ، فسمعها الشيخ ولم يقطع قراءته ، ولكنه مضى فيها حتى أتمها ، ثم أقبل على الصبي هادئاً باسماً يسأله ماذا كان يقول ؟ فأعاد الصبي قوله . فلما سمعه الشيخ هز رأسه وضحك ضحكة قصيرة وقال لابنه فى ازدراء : « ما أنت وذاك ! هذا ما تعلمتـــه فى الأزهر ! » . فغضب الصبي وقال لأبيه : « نعم ، وتعلمت فى الأزهر أن كثيراً مما تقرؤه فى هذا الكتاب حرام يضر ولا ينفع ؛ فما ينبغي أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء ، وما ينبغي أن يكون بين الله وبين الناس واسطة ، وإنما هذا لون من الوثنية » .

هنالك غضب الشيخ غضباً شديداً ، ولكنه كظم غضبه واحتفظ

بابتسامته وقال فأضحك الأسرة كلها : « اخرس قطع الله لسانك ، لا تعد إلى هذا الكلام . وإنى أقسم لئن فعلت لأمسكنك فى القرية ، ولأقطعنك عن الأزهر ، ولأجعلنك فقيهاً تقرأ القرآن فى المآتم والبيوت » . ثم انصرف ، وتضاحكت الأسرة من حول الصبي ، ولكن هذه القصة على قسوتها الساخرة لم تزد صاحبنا إلا عناداً وإصراراً .

وقد نسيها الشيخ بعد ساعات ، وأقبل على عشائه ومن حوله أبناؤه وبناته كعادته ، وجعل يسأل الصبي عن الشيخ الفتى ماذا يصنع فى القاهرة ؟ وماذا يقرأ من الكتب ؟ وعلى من يختلف من الأساتذة ؟

وكان الشيخ يجد لذة عظيمة فى إلقاء هذه الأسئلة وفى الاستماع لأجوبتها . كان يلقيها على ابنه الشيخ الفتى إذا عاد إلى القرية ؛ فيجيبه متكلفاً أول مرة ، فإذا أعيدت أعرض الفتى عن أبيه وبخل عليه بالجواب . ولم يكن أبوه ينكر ذلك منه جهرة ، ولكنه كان يتأذى به ويشكو منه لزوجه إذا خلا إليها .

فأما الصبي فكان سمحاً طيعاً ، لا يعرض عن أبيه ولا يمتنع عن إجابته ، ولا يدركه السأم مهما تتكرر الأسئلة ومهما يكن موضوعها . وكان الشيخ من أجل ذلك يحب أن يسأله ويستمتع بالتحدث إليه فى أثناء العشاء وأثناء الغداء . ولعله كان يعيد على أصحابه بعض ما كان ابنه يقص عليه من زيارات الشيخ الفتى

للأستاذ الإمام وللشيخ بخيت ، ومن اعتراض الشيخ الفتى على أساتذته فى أثناء الدرس وإحراجه لهم ، وردهم عليه بالعنف وبالشتم وبالضرب أحياناً .

وكان الصبي يشعر بلذة أبيه لهذه الأحاديث ورضاه عنها ، فيتزيد ويتكثر ويخترع منها ما لم يكن ، ويحفظ ذلك فى نفسه ليقصه على أخيه إذا عاد إلى القاهرة .

وكان الشيخ بهذا كله سعيداً وله مغتبطاً وعلى تجديده حريصاً . فلما جلست الأسرة للعشاء فى تلك الليلة وجدد الشيخ أسئلته عن ابنه الفتى : ماذا يصنع فى القاهرة ؟ وماذا يقرأ من الكتب ؟ قال الصبي فى دهاء وخبث وكيد : إنه يزور قبور الأولياء ، وينفق نهاره فى قراءة دلائل الخيرات .

ولم يكد الصبي ينطق بهذا الجواب حتى أغرقت الأسرة كلها فى ضحك شديد شرق له الصغار بما كان فى أفواههم من طعام وشراب ، وكان الشيخ نفسه أسرعهم إلى الضحك وأشدهم إغراقاً فيه .

وكذلك استحال نقد الصبي لأبيه فى قراءته للدلائل والأوراد موضوعاً للهو الأسرة وعبثها أعواماً وأعواماً . والظريف من هذا الأمر أن هذا النقد كان يحفظ الشيخ حقاً ، ويؤذيه فى نفسه وفيما ورث من عادة واعتقاد . ولكن الشيخ على ذلك كان يدعو ابنه إلى هذا النقد ويغريه به ، ويجد فى هذا الألم لذة ومتاعاً .

ومهما يكن من شيء فإن شذوذ الصبي لم يلبث أن تجاوز الدار إلى مجلس الشيخ قريباً منها ، وإلى دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، وإلى المسجد حيث كان الشيخ محمد أبو أحمد رئيس الفقهاء فى المدينة يقرئ القرآن للصبية والشباب ، ويصلى بالناس فى أثناء الأسبوع ، ويفقههم فى دينهم أحياناً ، وحيث كان الشيخ عطية — رجل من التجار الذين طلبوا العلم فى الأزهر أعواماً ، ثم عادوا إلى الريف فاشتغلوا بأمور الدنيا ولم ينصرفوا عن أمور الدين — يجلس للناس بعد صلاة العصر من حين إلى حين ، فيعظهم ويفقههم ، وربما قرأ لهم شيئاً من الحديث .

بل وصل شذوذ الصبي إلى المحكمة الشرعية ، فسمعه القاضى وسمعه خاصة ذلك الشيخ الذى كان يكتب للقاضى ، ويرى أنه أعلم من القاضى بالشرع ، وأفقه منه بالدين ، وأحق منه بالقضاء ، لولا أنه لم يظفر بهذه الورقة التى تسمى درجة العالمية والتى تشترط لتولى منصب القضاء ، والتى تنال بالجد والاجتهاد قليلا وبالحظ والتملق فى أكثر الأحيان .

تسامع هؤلاء الناس جميعاً بمقالات هذا الصبي وإنكاره لكثير مما يعرفون ، واستهزائه بكرامات الأولياء ، وتحريمه التوسل بهم وبالأنبياء . وقال بعضهم لبعض : إن هذا الصبي ضال مضل ، قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة ، ثم عاد بها إلى المدينة ليضلل الناس .

وربما سعى بعضهم إلى مجلس الشيخ وأصحابه قريباً من الدار وطلبوا إلى الشيخ أن يريهم ابنه ذلك الشاذ الغريب . فيقبل الشيخ هادئاً باسماً حتى يدخل الدار ، فيرى ابنه آخذاً فى اللعب أو الحديث مع أخواته ، فيأخذ بيده فى رفق ويقوده إلى مجلسه ؛ فإذا سلم على القادمين أجلسه ، ثم أخذ بعض القادمين فى التحدث إليه رفيقاً أول الأمر ، فإذا اتصل الحديث ذهب الرفق وقام مقامه الحوار العنيف . وكثيراً ما كان محاور الصبى ينصرف غاضباً متحرجاً يستغفر الله من الذنب العظيم ، ويستعيذ به من الشيطان الرجيم.

وكان الشيخ وأصحابه من الذين لم يدرسوا فى الأزهر ولم يتفقهوا فى الدين يرضون عن هذه الخصومات ويعجبون بها ، ويبتهجون لهذا الصراع الذى كانوا يشهدونه بين هذا الصبى الناشئ وهؤلاء الشيوخ الشيب .

وكان أبو الصبى أشدهم غبطة وسروراً . ومع أنه لم يصدق قط أن التوسل بالأولياء والأنبياء حرام ، ولم يطمئن قط إلى عجز الأولياء عن إحداث الكرامات ، ولم يساير قط ابنه فيما كان يقول من تلك المقالات ، فقد كان يحب أن يرى ابنه محاوراً مخاصماً ظاهراً على محاوريه ومخاصميه ، وكان يتعصب لابنه تعصباً شديداً . وكان يسمع ويحفظ ما كان الناس يتحدثون به ويخترعونه أحياناً من أمر هذا الصبى الغريب ، ثم يعود مع الظهر أو مع المساء فيعيد ذلك كله على زوجته راضياً حيناً وساخطاً حيناً آخر .

وعلى كل حال فقد انتقم الصبي لنفسه ، وخرج من عزلته وشغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه ، وتغير مكانه فى الأسرة ، مكانه المعنوى إن صح هذا التعبير ؛ فلم يهمله أبوه ، ولم تُعرض عنه أمه وإخوته ، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والإشفاق ، بل على شيء أكثر وآثر عند الصبي من الرحمة والإشفاق .

وانقطع ذلك النذير الذى سمعه الصبي فى أول الإجازة بأنه قد يبقى فى القرية ويقطع عن الأزهر ويصبح فقيهاً يقرأ القرآن فى المآتم والبيوت . وآية ذلك أنه أصبح ذات يوم فنهض مع الفجر ونهضت الأسرة كلها مع الفجر أيضاً ، ورأى الصبي نفسه بين ذراعى أمـــه وهى تقبله وتذرف دموعاً صامتة . ثم رأى الصبي نفسه فى المحطة مع صاحبه وأبوه يجلسه فى القطار رفيقاً به ، ثم يعطيه يده ليقبلها ، ثم ينصرف عنه وهو يسأل الله أن يفتح عليه .

ورأى الصبي نفسه يعبث مع صاحبه أثناء السفر ، ثم رأى الصبي نفسه ينزل من القطار فى محطة القاهرة ، وإذا أخوه يتلقاه مبتسماً له ، ثم يدعو حمالا ليحمل ما كان معه من متاع قليل وزاد كثير . فإذا تجاوز باب المحطة دعا عربة من عربات النقل فحمل عليها الزاد وصاحب أخيـــه ، ثم عربة أخرى من عربات الركوب ، فأجلس فيها أخاه رفيقاً به ، وجلس عن يمينه وأعطى السائق عنوان « الربع » .

١٧

وأقبل صاحبنا على دروسه فى الأزهر وغير الأزهر من المساجد . فأمعن فى الفقه والنحو والمنطق ، وأخذ يحسن « الفنقلة » التى كان يتنافس فيها البارعون من طلاب العلم فى الأزهر على المنهج القديم ، ويسخر منها المسرفون فى التجديد ، ولا يُعرض عنها المجددون المعتدلون . وإذا هو يدرس شرح الطائى على الكنز مصبحاً ، والأزهرية مع الظهر ، وشرح السيد الجرجانى على إيساغوجى ممسياً . وكان يحضر الدرس الأول فى الأزهر ، والدرس الثانى فى مسجد محمد بك أبى الذهب ، والدرس الثالث فى مسجد الشيخ العدوى على أستاذ من سلالة الشيخ العدوى نفسه . وربما ألمَّ بدرس من دروس الضحى كان يقرأ فيه كتاب قطر الندى لابن هشام تعجلا للتعمق فى النحو والفراغ من كتب المبتدئين والوصول إلى شرح ابن عقيل على الألفية . ولكنه لم يكن يواظب على هذا الدرس . كان يستجهل الشيخ ، ويرى فى « فنقلة » الشيخ عبد المجيد الشاذلى حول الأزهرية وحاشية العطار ما يكفيه ويرضيه .

وقد بقيت فى نفسه آثار لا تمحى من درس الأزهرية هذا ؛ ففيه تعلَّم « الفنقلة » حقًّا ، وكان أول ذلك هذا الكلام الكثير والجدال العقيم حول قول المؤلف « وعلامة الفعل قد » ؛ فقد أتقن

صاحبنا ما أثير حول هذه الجملة البريئة من الاعتراضات والأجوبة ، وأتعب شيخه حواراً وجدالا حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار ، ثم قال فى صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط ، ولم يذكره قط إلا ضحك منه ورق له : « الله حكم بينى وبينك يوم القيامة » . قال ذلك فى صوت يملؤه السأم والضجر ، ويملؤه العطف والحنان أيضاً . وآية ذلك أنه بعد أن أتم الدرس وأقبل الصبى ليلثم يده كما كان الطلاب يفعلون ، وضع يده على كتف الصبى ، وقال له فى هدوء وحب : « شد حيلك الله يفتح عليك » .

وعاد الصبى مبتهجاً بهذه الكلمات والدعوات ، فأنبأ بها أخاه وانتظر به أخوه موعد الشاى . فلما اجتمع القوم إلى شايهم قال للصبى مداعباً : قرر لنا « وعلامة الفعل قد » . فامتنع الصبى حياء أول الأمر ، ولكن الجماعة ألحت عليه ؛ فأقبل يقرر ما سمع وما وعى وما قال ، والجماعة صامتة تسمع له ، حتى إذا فرغ نهض إليه ذلك الكهل الذى كان ينتظر الدرجة فقبل جبهته وهو يقول : « حصنتك بالحى القيوم الذى لا ينام » .

وأما الجماعة فأغرقت فى الضحك . وأما الصبى فأغرق فى الرضا عن نفسه ، وبدأ منذ ذلك الوقت يعتقد أنه أصبح طالباً بارعاً نجيباً .

وقوى هذا الرأى فى نفسه أن زملاءه فى درس النحو التفتوا إليه وجعلوا يستوقفونه بعد الدرس ، أو يدنون منه قبل

الدرس ، فيسألونه ويتحدثون إليه ، ثم يعرضون عليه أن يعدّوا معه الدرس قبل الظهر . وقد أغراه هذا العرض فترك درس القطر ، وجعل يطالع مع زملائه هؤلاء يقرءون له ويأخذون فى التفسير ، وجعل هو يسبقهم إلى هذا التفسير ويستبد به من دونهم ، فلا يقاومونه وإنما يسمعون منه ويصغون إليه . وجعل ذلك يزيده غروراً إلى غرور ، ويخيل إليه أنه قد بدأ يصبح أستاذاً .

واطّردت حياته فى ذلك العام متشابهة لا جديد فيها إلا ما كان يفيده الصبى من العلم كلما أمعن فى الدرس ، وما كان يشعر به من الغرور إذا كان بين زملائه ، وما كان يُرَدُّ إليه من التواضع إذا كان بين أولئك الطلاب الكبار فى الربع ، وإلا ما كان يفيده من العـــلم بشؤون الأساتذة والطلاب فى الأزهر لما كان يسمع من حديث زملائه وأصدقاء أخيه عن أولئك وهؤلاء .

فلم يكن شىء من هذه الأحاديث ليحسن ظنه بأولئك أو هؤلاء ، وإنما كان ظنه يزداد بهم سوءاً كلما مر عليه الوقت . فقد كان يسمع بين حين وحين ثناء بالذكاء والبراعة على هذا الشيخ أو ذاك من صغار العلماء وكبارهم ، ولكنه كان يسمع دائماً عيباً لأولئك وهؤلاء بألوان من النقائص التى تتصل بالخلق أو تتصل بالسيرة أو تتصل بصناعة العلم نفسها ، والتى كانت تثير فى نفسه كثيراً من الغضب والازدراء وخيبة الأمل .

ولم يكن يسلم من هذه العيوب أحد . فأما هذا الشيخ فقد كان شديد الحقد على زملائه وأقرانه ، شديد المكر بهم والكيد لهم ، يلقاهم مبتسماً فلا يكاد يفارقهم حتى يقول فيهم أشنع القول ويسعى بهم أقبح السعى . وأما هذا الشيخ الآخر فقد كان رقيق الدين ، يظهر التقوى إذا كان فى الأزهر أو بين أقرانه ، فإذا خلا إلى نفسه وإلى شياطينه أغرق فى إثم عظيم .

وكان هؤلاء العائبون ربما سموا أولئك الشياطين الذين كان الشيخ يخلو إليهم ويشاركهم فى الإثم . وكان كبار الطلاب يتندرون على هذا الشيخ أو ذاك ؛ لأنه كان يعنى عناية خاصة بهذا الفتى أو ذاك ، ويلقى نظرات خاصة على هذا الفتى أو ذاك ، ولا يستقر على كرسيه إذا حضر من طلابه هذا الفتى أو ذاك .

وكانت الغيبة والنميمة أشيع وأشنع ما كان يُذْكَر من عيب الشيوخ . فكان الطلاب يذكرون سعى ذلك الشيخ بصديقه الحميم عند شيخ الأزهر أو عند الشيخ المفتى ، وكانوا يذكرون أن شيخ الأزهر كان أذناً للنمامين ، وأن الشيخ المفتى كان يترفع عن الاستماع لهم ويلقاهم بالزجر القاسى العنيف .

وقد تحدث الطلاب الكبار ذات يوم بقصة عن جماعة من كبار الشيوخ سموهم يومئذ ، فزعموا أن هؤلاء الشيوخ لاحظوا أنهم قد أسرفوا على أنفسهم فى الغيبة ، فاستعظموا ذلك وذكروا

قول الله عز وجل : «ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» ؛ فتناهَوْا عن هذه الخطيئة الكبيرة ، وتعاهدوا على أن من أخذ منهم فى الغيبة فعليه أن يؤدى إلى أصحابه عشرين قرشاً .

وقد كفوا عن الغيبة يوماً أو بعض يوم ضنًّا بهذا المبلغ من النقد . وإنهم لفى بعض حديثهم ، وإذا شيخ يمر بهم فيلقى عليهم تحية ، ويمضى فى طريقه . ولكنه لا يكاد يمضى حتى يخرج أحدهم قطعة من الفضة فيدفعها إلى أصحابه ويأخذ فى اغتياب هذا الشيخ .

فأما تحدث الطلاب كباراً وصغاراً بجهل شيوخهم وتورطهم فى ألوان الخطأ المضحك الذى كان بعضه يتصل بالفهم وبعضه يتصل بالقراءة ، فقد كان أكثر من أن يحصى وأعظم من أن يقدَّر . ومن أجل هذا كان صاحبنا سيئ الرأى فى العلماء والطلاب جميعاً . وكان يرى أن الخير كل الخير فى أن يجد ويجتهد ويحصل ما استطاع من العلم معرضاً عن مصادره التى كان يستقيه منها .

وازداد رأيه سوءاً حين استقبل السنة الثالثة من حياته فى الأزهر ، فالتمس لنفسه أستاذاً يقرأ فى الفقه شرح مُلاَّ مِسكين على الكنز ، فدُلَّ على أستاذ معروف بعيد الذكر ظاهر المكانة فى القضاء ، فذهب إليه وجلس فى حلقته ، ولكنه لم يكد ينفق دقائق حتى أحس حرجاً عظيما ، رأى نفسه مضطرًّا إلى أن يبذل جهداً شديداً لمقاومة الضحك . وذلك أن الشيخ رحمه الله قد كانت له لازمة غريبة ، كما كان

يقول الأزهريون . فلم يكن يقرأ جملة فى الكتاب أو يفسرها من عند نفسه إلا قال هذه الجملة مرتين : « قال قال ثم قال إيه » يعيد ذلك مرات فى الدقائق القليلة ، وصاحبنا يسمع له ويعنف على نفسه حتى لا يضحك فيأتى منكراً من الأمر .

وقد استطاع صاحبنا أن يضبط نفسه ، ولكنه لم يستطع أن يختلف إلى درس الأستاذ أكثر من ثلاثة أيام ؛ لأنه لم يجد عنده غناء ، وإنما وجد عنده عناء ، لم يفد منه شيئاً ، وإنما كان يكظم ضحكه كظماً عنيفاً ، ويكلف نفسه من ذلك ما لم تكن تطيق . والتمس غيره من الأساتذة الذين كانوا يقرءون هذا الكتاب ، فلم يجد عندهم إلا هذه « اللوازم » التى كانت تختلف باختلافهم ، ولكنها كانت تدفع الغلام إلى الضحك وتضطره إلى أن يبذل فى ضبط نفسه من الجهد ما كان يشغله أحياناً عن الاستماع . وقيل له فى أثناء ذلك إن هذا الكتاب من كتب الفقه ليس بذى خطر ، وإن أستاذاً ممتازاً سموه له يقرأ كتاب الدرر ، والخير فى أن تحضر درسه ، فهو من أذكى العلماء وأبرع القضاة .

واستشار صاحبنا أخاه وأصحاب أخيه فلم يردوه عن ذلك ، بل شجعوه عليه وأوصوا به الشيخ . وقد رضى الغلام عن أستاذه الجديد فى دروسه الأولى ، فلم يكن يلتزم جملة بعينها أو لفظاً بعينه أو صوتاً بعينه ، ولم يكن يتردد فى القراءة ولا فى التفسير ، وكان ذكاؤه واضحاً ، وإتقانه لفقه بيناً ، وحسن تصرفه فيه لا يتعرض للشك .

وكان الأستاذ رشيقاً أنيقاً حلو الصوت ممتازاً فى حركته وفى لقائه للطلاب وحديثه إليهم . وكان معروفاً بالتجديد ، لا فى العلم ولا فى الرأى ، ولكن فى السيرة . وكان كبار الطلاب يتحدثون بأنه يلقى درسه إذا أصبح ثم يمضى إلى محكمته فيقضى فيها ، ثم يروح إلى بيته فيطعم وينام . فإذا كان الليل خرج مع لداته فذهب إلى حيث لا ينبغى أن يذهب العلماء ، وسمع من الغناء ما لا ينبغى أن يسمع العلماء ، وأقبل من اللذات على ما لا ينبغى أن يقبل عليه رجال الدين ، وكانوا يذكرون « ألف ليلة وليلة » .

فيعجب الغلام لأنه كان يعرف أن « ألف ليلة وليلة » اسم كتاب طالما قرأ فيه ووجد فى قراءته لذة ومتاعاً . ولكنهم كانوا يذكرون هذا الاسم على أنه مكان يسمع فيه الغناء ، ويكون فيه اللهو ، وتطلب فيه بعض اللذات .

وكان الغلام يسمع عن شيخه هذه الأحاديث فلا يصدقها ولا يطمئن إليها ، ولكنه لم ينفق مع الشيخ أسابيع حتى أحس منه تقصيراً فى إعداد الدرس ، وقصوراً عن تفسير النص ، وضيقاً بأسئلة الطلاب ، بل أحس منه أكثر من ذلك ، فقد سأله ذات يوم عن تفسير بعض ما كان يقول فلم يجبه إلا بالشتم . وكان الشيخ أبعد الناس عن الشتم وأشدهم عنه ترفعاً .

فلما قص الغلام على أخيه وأصحابه من أمر الشيخ ما رأى ، أنكروا ذلك وأسفوا له ، وهمس بعضهم لبعض بأن العلم والسهر

فى « ألف ليلة وليلة » لا يجتمعان .

وكان حظ الغلام فى النحو خيراً من حظه فى الفقه ؛ فقد سمع القطر والشذور على الشيخ عبد الله دراز رحمه الله ، فوجد من ظرف الأستاذ وصوته العذب وبراعته فى النحو ومهارته فى رياضة الطلاب على مشكلاته ما زاده فى النحو حبًّا .

ولكن حظه فى النحو لم يلبث أن ساء حين استؤنفت الدراسة فى العام الجديد . فقد أخذ الغلام يسمع على الشيخ عبد الله دراز شرح ابن عقيل . وبينما الأستاذ وطلابه ماضون فى درسهم ، راضون عن عملهم ، صدر الأمر إلى الأستاذ بالانتقال إلى معهد الإسكندرية .

فمانع فى ذلك ما استطاع ، ومانع طلابه ما استطاعوا ، ولكن المشيخة لم تسمع له ولا لهم . فلم يجد بدًّا من إنفاذ الأمر . ولم ينس الغلام ذلك اليوم الذى ودع الأستاذ فيه طلابه ، وإنه ليبكى مخلصاً ، وإنهم ليبكون مخلصين ويشيعونه باكين إلى باب المسجد .

ثم أقيم مقام الشيخ ، شيخ آخر ضرير ، وكان مشهوراً بالذكاء الحاد والتفوق الظاهر والنبوغ الممتاز ، وكان لا يذكر إلا أثنى عليه ذاكروه والسامعون لذكره بهذه الخصال .

أقبل هـذا الشيخ ، فأخذ الدرس من حيث تركه الشيخ عبد الله دراز . وكانت حلقة الشيخ عبد الله دراز عظيمة تملأ رقعتها القبة من مسجد محمد بك أبى الذهب . فلما خلفه هذا الشيخ

ازدادت هذه الحلقة ضخامة واتساعاً حتى اكتظ بها المكان . وألقى الشيخ درسه الأول فرضى عنه الطلاب ، ولكنهم لم يجدوا عنده وداعة أستاذهم القديم ولا عذوبة صوته . ثم ألقى درسه الثانى والثالث ، وإذا الطلاب ينكرون منه رضاه عن نفسه وإعجابه بها ، وثقته بما كان يقول ، وغضبه الحاد على مقاطعيه .

ولم يكد يتقدم فى درسه الرابع حتى كانت بينه وبين صاحبنا قصة صرفت الغلام عن النحو صرفاً . كان الشيخ يفسر قول تأبط شرا :

فأبت إلى فهم وما كدت آئباً
وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

فلما وصل إلى قوله « تصفر » قال : إن العرب كانت إذا اشتدت على أحدهم أزمة أو محنة وضعوا أصابعهم فى أفواههم ونفخوا فيها ، فكان لها صفير يسمع .

قال الغلام للشيخ : وإذاً فما مرجع الضمير فى قوله « وهى تصفر ؟ » وفى قوله « وكم مثلها فارقتها ؟ » . قال الشيخ مرجعه « فهم » أيها الغبى . قال الغلام : فإنه قد عاد إلى فهم والبيت لا يستقيم على هذا التفسير . قال الشيخ : فإنك وقح وقد كان يكفى أن تكون غبياً . قال الغلام : ولكن هذا لا يدل على مرجع الضمير . فسكت الشيخ لحظة ثم قال : « انصرفوا ، فلن أستطيع أن أقرأ وفيكم هذا الوقح » .

ونهض الشيخ ، وقام الغلام ، وقد كاد الطلاب يبطشون به لولا

أن حماه زملاؤه وكانوا من أهل الصعيد .. حموه بأن أحاطوا به وأشهروا نعالهم فتفرق الناس . وأى الأزهريين لم يكن يَتَفَرَّقُ فى ذلك الوقت من نعال أهل الصعيد !

ولم يعد الغلام إلى درس النحو ، بل لم يحضر الغلام بعد ذلك درساً فى النحو ، بل ذهب من غده إلى درس كان يلقيه أستاذ معروف من أهل الشرقية . وكان يقرأ شرح الأشمونى ، ولكنه لم يتم الاستماع للدرس . مضى الشيخ يقرأ ويفسر ، وسأله الغلام فى بعض الشىء ، فرد عليه الشيخ بما لم يقنعه . فأعاد السؤال ، فغضب الشيخ وأمره بالانصراف . فتوسط بعض أصدقائه عند الشيخ يستعطفونه ، فازداد غضب الشيخ وأبى أن يمضى فى الدرس حتى يقوم هذا الغلام ومعه أصدقاؤه . ولم يكن لهم بد من أن ينصرفوا ؛ فقد أشهرت عليهم نعال الشرقية . ولم تكن نعال الشرقية بأقل خطراً من نعال الصعيد .

وذهب الغلام من غده مع أصحابه إلى حلقة أخرى كان يقرأ فيها شرح الأشمونى ، يقرؤه أستاذ مشهور من أساتذة الشرقية أيضاً . فوقف الغلام على الحلقة لحظة لا تتجاوز الدقائق الخمس ، ولكنه سمع فيها هذه اللازمة الغريبة يعيدها الشيخ كلما انتقل من جملة إلى جملة « اخص على بلدىْ » ، فضحك الغلام وضحك أصدقاؤه وانصرفوا . وأزمع الغلام وصديق له أن يدرسا النحو مستقلين ، وأن يدرساه فى مصادره الأولى ، فقرآ كتاب المفصَّل

للزمخشري ، ثم كتاب سيبويه ، ولكن هذه قصة أخرى .

ولم يكن حظه فى المنطق خيراً من حظه فى الفقه والنحو . لقد أحب المنطق حبًّا شديداً حين كان يسمع شرح السيد على إيساغوجى من أستاذه ذاك الشاب فى العام الماضى . فأما فى هذا العام فقد جلس لأمثاله من أوساط الطلاب علم من أعلام الأزهر الشريف ، وإمام من أئمة المنطق والفلسفة فيه ، وكان معروفاً بين كبار الطلاب بهذا الذكاء الظاهر الذى يخدع ولا يغنى شيئاً ، وكان معروفاً بهذه الفصاحة التى تبهر الأذن ولا تبلغ العقل . وكان يؤثر عنه أنه كان يقول : « مما منّ الله علىّ به أنى أستطيع أن أتكلم ساعتين فلا يفهم أحد عنى شيئاً ولا أفهم أنا عن نفسى شيئاً » . كان يرى ذلك مزية وفخراً . ولكن لم يكن بد للطالب الذى يقدّر نفسه من أن يجلس إليه ويسمع منه . وقد جلس للطلاب بعد صلاة المغرب يقرأ لهم شرح الخبيصى على تهذيب المنطق . وذهب إليه صاحبنا وسمع منه درساً ودرساً ، وكانت حلقته عظيمة حقًّا تكتظ بها القبة فى جامع محمد بك . وكان الغلام يسبق صلاة المغرب فيجلس فى أقرب مكان من كرسى الأستاذ . وكان الأستاذ جَهْوَرِى الصوت قد احتفظ بلهجة الصعيد كاملة . وكان شديد النشاط كثير الحركة . وكان إذا سأله طالب رد هو عليه ساخراً منه ؛ فإن ألح الطالب فى السؤال ثار هو به وجعل يقول له فى حدة : « اسكت يا خاسر ، اسكت يا خنزير ! » وكان يفخم الخاء

فى الكلمتين إلى أقصى ما يستطيع فمه أن يبلغ من التفخيم .

وقد استقام للشيخ وللطلاب أمرهم حتى أتموا قسم التصورات . فلما بلغوا فى كتابهم المقصد الثانى فى التصديقات لقى الغلام من نفسه ومن شيخه بلاء عظيما ، فاضطر إلى أن يختار له من الغد مكاناً بعيداً عن الشيخ ، وما زال يتأخر يوماً بعد يوم فى مجلسه حتى بلغ باب القبة ، فخرج منه ذات ليلة ، ولم يدخله بعد ذلك .

لقى الغلام بلاء من نفسه لم يذكره قط إلا ضحك منه ضحكاً شديداً ، وأضحك منه أخاه وأصدقاءه جميعاً . فقد جلس الشيخ على كرسيه وأخذ فى القراءة ، فقال : « المقصد الثانى فى التصديقات » يقلقل القاف ويفخم الصاد ، ويمد الألفات والياءات مدّاً متوسطاً ، ثم يعيد هذه الكلمات نفسها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويطيل مد الألفات والياءات . ثم يعيد الكلمات نفسها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويمد الألف والياء فى « الثانى » ولكنه لا يقول « فى التصديقات » ، وإنما يقول « فى مين ؟ » فلا يرد عليه أحد . فيرد على نفسه ويقول « فى التصديقات » . ثم يعيد الكلمة نفسها على هذا النحو نفسه ، فإذا انتهى إلى قوله « فى مين ؟ » ولم يرد عليه أحد ، ضرب بظهر يده فى جبهة الغلام وهو يقول : « ردوا يا غنم ، ردوا يا بهائم ، ردوا يا خنازير ! » . يفخم الغين والخاء إلى أقصى ما يستطيع فمه أن يبلغ من التفخيم ، فيقول الطلاب جميعاً « فى التصديقات » .

لقى الغلام من نفسه عناء شديداً ؛ فقد كان هذا كله خليقاً أن يضحكه ، وكان يخاف أن يضحك بين يدى الأستاذ . ولقى من شيخه بلاء عظيماً بهذه الضربات التى كانت تتوالى على جبهته بين حين وحين . ومهما يكن من شىء فقد تحول الغلام عن هذا الدرس ولم يتجاوز بالمنطق عند هذا الشيخ باب القضايا .

تحول عن هذا الدرس فى أثناء العام ، وقرر أن يحضر مكانه درساً فى التوحيد كان يلقيه شيخ جديد حديث الظفر بدرجة العالمية . وكان أصدقاؤه من كبار الطلاب يذكرونه بالظرف الشديد والذكاء المتوسط وحلاوة الصوت وحسن الإلقاء ، ويقولون : إن علمه يخدع من حدّثه أو سمع عنه ، فإذا تعمقه لم يجد عنده شيئاً . وكان يقرأ شرح الخريدة ومتنها للدردير . فسمع الغلام منه درساً وأعجب بصوته وإلقائه وظرفه ، وجعل ينتظر أن يعجب بعلمه وفنقلته . ولكن الشيخ صُرِف عن الدرس لأنه نقل من القاهرة وأرسل إلى مكان بعيد تولى فيه منصب القضاء ، فلم يتح للغلام أن يعلم علمه ، ولا أن يقضى فى أمره بشىء إلا أنه كان لبقاً ظريفاً حلو الصوت عذب الحديث .

وإذاً فقد ضاعت السنة فى حقيقة الأمر على الغلام ، ولم يحصل فيها أو لم يكد يحصل فيها من العلم شيئاً جديداً ، إلا ما كان يقرؤه فى الكتب ويسمعه من أولئك الطلاب الكبار وهم يطالعون أو يتناظرون .

فلما عاد إلى الأزهر من قابل ، عاد إليه ضيق النفس به ، شديد الزهد فيه ، حائراً فى أمره لا يدرى ماذا يصنع : لا يستطيع أن يقيم فى الريف ، وماذا يفعل فى الريف ! ولا يجد نفعاً من إقامته فى القاهرة واختلافه إلى الشيوخ . وفى هذا العام اتصل بدرس الأدب . ولكن لحديث هذا الدرس ساعة

* من الدهر ما حانت ولا حان حينها *

كما تقول بثينة فى سلوّها عن جميل .

١٨

وفى الحق أن إقبال الفتى على درس الأدب لم يصرفه عن علومه الأزهرية أول الأمر ؛ فقد كان يظن أنه يستطيع الملاءمة فى نفسه بين هذين اللونين من ألوان المعرفة . وهو لم يرسل إلى القاهرة ولم ينسب إلى الأزهر ليكون أديباً ينظم الشعر أو ينشئ النثر . وإنما أرسل إلى القاهرة وانتسب إلى الأزهر ليسلك طريقه الأزهرية الخالصة ، حتى يبلغ الامتحان ويظفر بالدرجة ، ويسند ظهره إلى عمود من الأعمدة القائمة فى ذلك المسجد العتيق ، ويتحلق الطلاب من حوله فيسمعوا منه درساً فى الفقه أو فى النحو أو فيهما جميعاً .

كذلك كان يتمنى أبوه ، وبذلك كان يتحدث إلى الأسرة فى شىء من الأمل والإعجاب بابنه هذا الشاذ الغريب . وكذلك كان يريد أخوه ، وكذلك كان يريد هو . وماذا كان يمكن أن يريد غير ذلك وقد فرضت الحياة على أمثاله من المكفوفين الذين يريدون أن يحيوا حياة محتملة إحدى اثنتين : فإما الدرس فى الأزهر حتى تنال الدرجة وتضمن الحياة بهذه الأرغفة التى تؤخذ فى كل يوم ، وبهذه القروش التى تؤخذ آخر الشهر لا تزيد عن خمسة وسبعين قرشاً إن كانت الدرجة

الثالثة ، ولا عن مائة قرش إن كانت الدرجة الثانية ، ولا عن خمسين ومائة قرش إن كانت الدرجة الأولى . وإما أن يتجر بالقرآن فيقرأه فى المآتم والبيوت كما أنذره بذلك أبوه فى وقت من الأوقات .

فلم يكن للفتى بد إذن من أن يمضى فى طريقه الأزهرية حتى يبلغ غايتها . وكانت هذه الطريق تنشعب إلى شعبتين إذا قضى الطالب ثلاثة أعوام أو أربعة فى الأزهر : إحداهما علمية وهى الاختلاف إلى الدروس والتنقل فى مراحل العلم . وكان الفتى ماضياً فيها ، أقبل عليها مشغوفاً بها ، ثم فترت همته . ثم ازدراها وانصرفت عنها نفسه حين استيأس من الأساتذة وساء ظنه بالشيوخ .

والثانية مادية وكانت تتألف من مراحل ثلاث : مرحلة المنتسب ، ومرحلة المنتظر ، ومرحلة المستحق . أما مرحلة المنتسب فهى المرحلة التى يبدأ الطالب بها حياته الأزهرية بعد أن يتم تقييده فى سجلات الأزهر . ولم يكن له بد من أن ينتسب إلى أحد الأروقة . وقد انتسب صاحبنا كما انتسب أخوه إلى رواق الفشنية . وأما مرحلة المنتظر فقد كانت المرحلة الثانية ، ينتقل إليها الطالب بعد أن يقيم أعواماً فى الأزهر ، وسبيله إلى ذلك ورقة يكتبها ويرفعها إلى شيخ الرواق يعين فيها ما أنفق فى الأزهر من عام وما حضر فيه من درس ، ويشهد على صدقه فيما سجل فيها شيخان من شيوخه ، ويطلب إلى شيخ الرواق أن يقيد اسمه بين

أسماء المنتظرين ، حتى إذا خلا مكان بين المستحقين للجراية ارتقى إليه فبلغ المرحلة الثالثة ونال جرايته رغيفين أو ثلاثة أو أربعة ، على اختلاف بين الأروقة فى ذلك .

فلم يكن بد لصاحبنا من أن يرقى إلى مرحلة المنتظرين ، وقد كتب الورقة وختمها بالجملة التى كانت شائعة إذ ذاك « جعلكم الله ملجأ للقاصدين » .

وشهد شيخان أنه لم يقل فى هذه الورقة إلا حقاً . وذهب إلى الشيخ فى داره ، فرفع إليه الورقة بعد أن قبل يده وانصرف . فانتظر وطال الانتظار ، ولم يظفر بالجراية قط فى هذا الرواق . ولكن ارتقاءه إلى مرحلة المنتظرين أرضى أباه وملأ فمه فخراً على كل حال .

وبينما كان ينتظر فى طائل أو فى غير طائل خرج الأستاذ الأمام من الأزهر فى تلك القصة المعروفة ، وبعد تلك الخطبة المشهورة التى ألقاها الخديوى على بعض العلماء .

وكان الفتى يظن أن تلاميذ الشيخ ، وكانوا كثيرين يكتظ بهم الرواق العباسى فى كل مساء ، سيحدثون حدثاً ، وسينبئون الخديوى بأن شباب الأزهر قد تغيروا ، وبأنهم سيذودون عن شيخهم ، وسيبذلون فى سبيل ذلك لا أوقاتهم وحدها بل أرواحهم أيضاً .

ولكن الشيخ ترك الأزهر واتخذ داراً للإفتاء ؛ فلم يزد تلاميذه

على أن حزنوا وتحدثوا بالأسف فيما بينهم وبين أنفسهم ، وزار قليل منهم الشيخ فى داره بعين شمس ، وانصرف عنه أكثرهم ، وانتهى الأمر عند هذا الحد . فامتلأت نفس الفتى حزناً وغيظاً ، وساء ظنه بالطلاب كما ساء ظنه بالشيوخ ، ولم يكن مع ذلك قد عرف الأستاذ الإمام أو قُدِّم إليه .

وبعد ذلك بقليل توفى الأستاذ الإمام ، فاضطربت مصر لوفاته . وكانت البيئة الأزهرية أقل البيئات المصرية اضطراباً لهذا الحادث الجلل . وأسف تلاميذ الشيخ ، ولعل قليلا منهم سفحوا بعض الدموع ، ولكنهم أقبلوا بعد الصيف على دروسهم ، كأن الشيخ لم يمت ، أو كأن الشيخ لم يكن ، لولا أن الخاصة من تلاميذه كانوا يذكرونه بالخير بين حين وحين .

وكذلك عرف الفتى فى ألم لاذع ولأول مرة فى حياته الناشئة أن ما يقدم إلى عظماء الرجال من ألوان الإكبار والإجلال وضروب التملق والزلفى لغو لا طائل تحته ولا غناء فيه ، وأن وفاء الناس ينحل فى أكثر الأحيان إلى كلام لا يفيد .

وزاد سوء الظن بالناس فى نفس الفتى قوة ما لاحظه فى بعض البيئات من انتهاز وفاة الشيخ فرصة للاتجار باسمه ، واستغلال الصلة به ، يتوسلون إلى ذلك بالشعر حيناً وبالنثر حيناً آخر ، وبالإعلان فى الصحف والمجلات دائماً .

ولكن الفتى أحس شيئاً آخر زاد به انحرافاً عن الأزهر وانصرافاً

عن شيوخه وطلابه . أحس أن الذين بكوا الشيخ صادقين وحزنوا عليه مخلصين لم يكونوا من أصحاب العمائم ، وإنما كانوا من أصحاب الطرابيش ، فوجد فى نفسه ميلا خفيًّا إلى أن يقرب من أصحاب الطرابيش هؤلاء ، وإلى أن يتصل ببيئاتهم بعض الاتصال . ومن له بذلك وهو فتى ضرير قد فرضت عليه الحياة الأزهرية فرضاً فلم يجد عنها منصرفاً !

وكان الأستاذ الإمام شيخاً لرواق الحنفية ، فلما خرج من الأزهر أو لما خرج من الحياة أصبح خلفه على الإفتاء خلفاً له على الرواق أيضاً .

وكان ابن المفتى الجديد أستاذاً لصاحبنا الفتى ، سمع عليه فى صباه شرح السيد الجرجانى على إيساغوجى فى المنطق ، وكان يقوم عن أبيه بأمر الرواق . فأغرى الفتى بالانتساب إلى رواق الحنفية والانتظار فيه . وكانت الجراية فى رواق الحنفية أيسر منالا وأكثر عدد أرغفة منها فى غيره من الأروقة ، ولم يكن الانتساب إلى رواق الحنفية فى أيام الإستاذ الإمام سهلا ولا يسيراً وإنما كان الامتحان سبيلا إليه . وقد احتفظ المفتى الجديد بهذه السنة . وكان ابنه هو الذى يمتحن المتقدمين للانتساب فى موعد يعينه فى العام . فقيل لصاحبنا الفتى مالك لا تنتسب إلى هذا الرواق وقد انتسب إليه أخوك من قبل وأصحابه النجباء أيام الأستاذ الإمام ، وهم يأخذون منه جراياتهم أربعة أرغفة لكل

واحد منهم فى كل يوم ؟ وزين ذلك له وحثه عليه أخوه وأصحابه .
وأرسل إلى الامتحان ذات مساء ومعه كتاب إلى الممتحن .
فلما أدخل الفتى على الممتحن حياه وأخذ منه الكتاب فنظر فيه
ثم ألقى عليه سؤالا ورد الفتى جواب السؤال خطأ أو صوابا لم
يدر ، ولكن الممتحن قال له : « انصرف يا علامة » فانصرف
راضياً . ولم يمض إلا وقت قليل حتى أصبح الفتى مستحقًّا ونال
رغيفين فى كل يوم ، فكثر الخبز فى الغرفة ، وفرحت الأسرة
فى الريف .

على أن الفتى لم ينل رغيفين فحسب ، وإنما نال معهما خزانة
فى الرواق كانت آثر عنده من الرغيفين . فقد كان يستطيع إذا
دخل الأزهر فى الصبح أن يذهب إلى خزانته فيضع فيها نعليه
ورغيفيه أو أحدهما ، ويقضى نهاره حرًّا لا يعنى بهاتين النعلين
اللتين كان يبذل جهداً غير قليل لحمايتهما من عدوان الخاطفين
والسارقين . وما أكثر ما كانت تسرق النعال فى الأزهر !
وما أكثر ما كانت تلصق على جدران الأزهر من حول الصحن
أوراق يعلن فيها أصحابها أن نعالهم قد ضاعت ، وأن من ظفر بها
فردها إلى صاحبها فى مكان كذا ، أو رواق كذا ، فله الأجر
والثواب ، ومن احتفظ بها متعدياً قطعه الله من هذا المكان !

كان الفتى إذن سعيداً بخزانته ورغيفيه ، ولكنه لم يكن سعيداً
بما كان يحصل من العلم أو يسمع من الدرس . وقد كان يكره

نفسه إكراهاً على أن يسمع بعد الفجر درساً فى التوحيد كان يلقيه الشيخ راضى رحمه الله ، وكان يقرأ كتاب المقاصد ، ويسمع فى الصبح درس الفقـــه على الشيخ بخيت وكان يقرأ كتاب الهداية ، ويسمع فى الظهر درس البلاغة على الشيخ عبد الحكم عطا وكان يقرأ شرح السعد .

وكان درس الفقه يسلّى الفتى ويلهيه بما كان يسمع فيه من غناء الشيخ إذا خلّى الطلاب بينه وبين الغناء ، وحدة الشيخ ونكته الأزهرية إذا قطع الطلاب عليه غناءه فجادلوه فى بعض ما كان يقرأ أو كان يقول . وربما كان الشيخ ينشد طلابه أحياناً من شعره إذا صفا وطابت نفسه للإنشاد . وقد حفظ عنه الفتى بيتاً من الشعر لم ينس قط صوت الشيخ وهو يتغنى به مترنحاً :

كأن عمتـــه من فوق هامتـــه

شنف من التبن محمول على جمـــل

وقد روى الفتى هذا البيت لأخيه وأصحابه فتضاحكوا وتذاكروا شعر الشيخ وتناشدوا بعضه . وروى الفتى إلى البيت السابق بيتاً آخر ليس أقل منه طرافة وظرفاً ، وهو مطلع قصيدة قالها الشيخ رحمه الله فى رثاء بعض العلماء ، وهو :

خطب جليل بعد موتك يا نبى

فقـــد الأئمة كالإمام المغربى

وقد روى المصريون جميعاً عن الشيخ بعد ذلك العهد بأعوام

طوال بيتاً آخر لم ينسه ظرفاؤهم بعدُ ، وقد سار فيهم كما تسير الأمثال ، وهو :

إنا مع الأمرا والوفد والوزرا
على وفاق له فى القلب تأييد

وكان الفتى ربما جادل الشيخ فأطال الجدال . وقد أسرف الجدال مرة فى الطول حتى تأخر الدرس عن إبانه ، وتصايح الطلاب من جوانب المسجد الحسينى بالشيخ أن حسبك فقد نفد الفول . فأجابهم الشيخ فى غنائه الظريف : لا والله لا نقوم حتى يقتنع هذا المجنون . ولم يكن بد للمجنون من أن يقتنع ؛ فقد كان هو أيضاً حريصاً على أن يدرك الفول قبل أن ينفد .

وكان درس البلاغة أثيراً عند الفتى ، لا لما كان يحصل فيه من علم ؛ فقد مضى منذ وقت طويل إقبال الفتى على الدروس فى الأزهر لتحصيل العلم ، وإنما كان يقبل عليه أداء للواجب وقطعاً للوقت والتماساً للفكاهة . وكان درس البلاغة أثيراً عنده لأنه كان يجد فيه هذه الفكاهة ، ولأن الشيخ ، نضر الله وجهه ، كان سمح النفس رضى الخلق مخلصاً فى درسه للعلم وللطلاب . ولأنه بعد ذلك كان يكلف نفسه فى الفهم والإفهام جهداً عظيماً وعناء ثقيلا . وكان إذا بلغ منه الجهد رفه على نفسه بهذه الجملة يوجهها إلى طلابه بين حين وحين ، فى لهجة منياوية عذبة مضحكة « فاهمين يا سيادى ؟ » .

وكان إذا انتصف الدرس أشفق على نفسه وعلى الطلاب فقطع القراءة والتفسير وأقام دقائق صامتاً لا ينطق ، وأقبل على نشوقه فالتهم منه بأنفه ما استطاع فى تؤدة وروية وأناة . وكان الطلاب ينتهزون هذه الفرصة ليطفئوا ما كان يتأجج فى بطونهم من نار الفول والطعمية والكراث بقدح من أقداح الشراب الذى كان يطوف به الباعة عليهم فى أثناء الدروس ، ويدعونهم دعاء لطيفاً بهذا النقر الخفيف الذى كان يمس به الزجاج فيبعث إلى الآذان صوتاً خفيفاً ظريفاً .

وفى ذات يوم كان الفتى يستريح مع بعض أصحابه أثناء هذه السكتة ، وكان الشيخ مقبلا على نشوقه والطلاب على شرابهم ، وإذا أحد المشدين يأتى فيدعو الفتى وصاحبيه فى رفق إلى غرفة شيخ الجامع .

ولكن هذه قصة لم يأت وقتها بعدُ . وإن كان الناس قد عرفوها منذ وقت بعيد . وقد قام الفتى وصاحباه عن الدرس ثم لم يعودوا إليه بعد ذلك .

وفى هذا الوقت أو قريباً من هذا الوقت ، وقعت قصة دخل فيها الفتى ومضى فيها إلى غايتها ، ولكنها قضت فى نفسه على كل أمل فى أن يظفر بنجاح فى الأزهر قليل أو كثير .

غضب القصر على شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، فمنع الشيخ من إلقاء دروسه ، ورأى الناس أن فى هذا المنع ظلماً للشيخ وعدواناً

على حقوق الأزهر ، ولكنهم لم يصنعوا شيئاً ، وكان الأزهريون أشدهم فتوراً وخضوعاً . ولكن صديقاً من أصدقاء الفتى — كانت له فيما أقبل من الأيام مواقف مشهورة يحمدها له الناس — أقبل عليه ذات يوم فقال له : ألست ترى فيما حل بشيخنا ظلماً وعدواناً ؟ قال الفتى : بلى وأى ظلم وأى عدوان ! قال له الصديق : ألا تشارك فى الاحتجاج على هذا الظلم ؟ قال الفتى : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال الصديق : نجمع نفراً من أصدقائنا الذين كانوا يسمعون دروس الشيخ ونسعى إليه نتمنى عليه أن يمضى فى إلقاء دروسه علينا فى بيته ، فإذا قبل انتفعنا بالدرس وأعلنا ذلك فى الصحف فعرف الظالمون للأزهر أن بين الأزهريين من لا يقرون الظلم ولا يذعنون له . قال الفتى : هذا حسن .

واجتمع نفر من طلاب الشيخ فسعوا إليه بما أرادوا ، وأجابهم إلى ما طلبوا ، فأعلنوا ذلك فى الصحف ، وأعلنوا أن الشيخ سيقرأ لهم « سلم العلوم » فى المنطق « ومسلم الثبوت » فى الأصول ، يقسم الأسبوع بين هذين الكتابين .

وبدأ الشيخ دروسه فى بيته ، وكثر الطلاب المقبلون على هذه الدروس حين علموا بها ، ورضى هؤلاء الشباب عن أنفسهم وعن شجاعتهم ، وعاد إلى الفتى شىء قليل من الأمل .

ولكنه فى ذات يوم جادل الشيخ فى بعض ما كان يقول . فلما طال الجدال غضب الشيخ وقال للفتى فى حدة ساخرة :

« اسكت يا أعمى ما أنت وذاك ! » . فغضب الفتى وأجاب الشيخ فى حدة : « إن طول اللسان لم يثبت قط حقًّا ولم يمح باطلا » . فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة ، ثم قال الشيخ لطلابه : « انصرفوا اليوم فهذا يكفى » .

ولم يعد الفتى منذ ذلك اليوم إلى دروس الشيخ ، بل جهل كل ما كان من أمرها .

وكذلك عاد الفتى إلى يأسه من الأزهر ، ولم يبق له أمل إلا فى درس الأدب الذى آن الوقت للتحدث عنه وعن آثاره البعيدة فى حياة هذا الشاب .

١٩

لم يكد الصبي يبلغ القاهرة ويستقر فيها حتى سمع ذكر الأدب والأدباء ، كما سمع ذكر العلم والعلماء . سمع حديث الأدب بين هؤلاء الطلاب الكبار حين كانوا يذكرون الشيخ الشنقيطى ، رحمه الله ، وحماية الأستاذ الإمام له وبره به . وقد وقع هذا الاسم الأجنبي من نفس الصبي موقعاً غريباً . وزاد موقعه غرابة ما كان الصبي يسمعه من أعاجيب الشيخ وأطواره الشاذة وآرائه التى كانت تضحك قوماً وتغضب قوماً آخرين .

كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريباً للشيخ الشنقيطى فى حفظ اللغة ورواية الحديث سنداً ومتناً عن ظهر قلب . وكانوا يتحدثون بحدته وشدته وسرعته إلى الغضب وانطلاق لسانه بما لا يطاق من القول . وكانوا يضربونه مثلا لحدة المغاربة . وكانوا يذكرون إقامته فى المدينة ورحلته إلى قسطنطينية ، وزيارته للأندلس ، وربما تناشدوا شعره فى بعض ذلك . وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع فى مصر وفى أوربا ، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته فى دار الكتب قارئاً أو ناسخاً . ثم كانوا يذكرون بعد ذلك متضاحكين قصته الكبرى تلك التى شغلته بالناس وشغلت الناس

به ، وعرضته لكثير من الشر والألم ، وهى رأيه فى أن « عمر » مصروف لا ممنوع من الصرف .

وكان الصبى يسمع حديث « عمر » هذا فلا يفهم منه شيئاً أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن فهمه فى وضوح حين تقدّم فى درس النحو وعرف المصروف والممنوع من الصرف ، وعرف غير المتمكن ، والمتمكن ، والمتمكن الأمكن من الأسماء . وكان أولئك الشباب يذكرون مناظرات الشيخ مع جماعات من علماء الأزهر فى صرف « عمر » هذا أو منعه من الصرف ، ويتحدثون ضاحكين بأن العلماء اجتمعوا للشيخ ذات يوم فى الأزهر يرأسهم شيخ الجامع ، فطلبوا إليه أن يعرض عليهم رأيه فى صرف عمر . فقال الشيخ فى لهجته المغربية المتحضرة : لا أعرض عليكم هذا الرأى حتّى تجلسوا منى مجلس التلاميذ من الأستاذ . فتردد الشيوخ ، ولكن واحداً منهم ماكراً ماهراً نهض عن مجلسه وسعى حتّى كان بين يدى الشيخ فجلس على الأرض متربعاً ، وأخذ الشيخ فى عرض رأيه فقال : أنشد الخليل :

يا أيها الزارى علـــى عُمَرٍ
قـــد قلت فيه غير ما تعلم

قال الشيخ الجالس مجلس التلميذ بصوته الماكر النحيف : لقد رأيت الخليل أمس فأنشدنى البيت على هذا النحو . « يا أيها الزارى على عُمَرَ » . ولم يدعه الشيخ الشنقيطى يتم إنشاده ،

وإنما قطع عليه الإنشاد محتداً وهو يقول : « كذبت! كذبت ! لقد مات الخليل منذ قرون طويلة فكيف يمكن لقاء الموتى ! »، وجعل بعد ذلك يشهد الشيوخ على تعمد صاحبهم للكذب ، وعلى جهله بالنحو والعروض . وضحك القوم وتفرق المجلس دون أن يقضى فى أمر عمر أممنوع من الصرف كما يقول النحاة أم مصروف كما يقول هذا الشيخ الغريب . وكان الصبي يسمع هذا الكلام فيحفظه ، ويجد اللذة فيما فهم منه ، ويعجب بما لم يفهم .

وكان الشيخ يقرأ لبعض الطلاب هذه القصائد التى تعرف بالمعلقات . وكان أخو الصبي وبعض أصدقائه يسمعون هذا الدرس فى يوم الخميس أو فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وكانوا يعدّون هذا الدرس كغيره من الدروس . وكذلك سمع الصبي لأول مرة :

قِفَا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وما أسرع ما انصرف هؤلاء الطلاب الكبار عن هذا الدرس الذى لم يسيغوه ! ولكن أخا الصبي حاول أن يحفظ المعلقات ، فحفظ منها معلقة امرئ القيس ومعلقة طرفة . كان يردد الأبيات بصوت مرتفع والصبي يسمع فيحفظ ، ثم لم يلبث أن أشرك الصبي معه فى الحفظ . ولكنه لم يتجاوز هاتين المعلقتين وانصرف إلى دروسه الأزهرية الأخرى . واستقرت المعلقتان فى نفس الصبي يحفظهما ولا يفهم منهما إلا قليلا .

وكان هؤلاء الطلاب يتحدثون عن درس آخر كان يلقى فى الأزهر ليعلم الأزهريين صناعة الإنشاء . وكان يلقيه شيخ سورى من خاصة الأستاذ الإمام ، وقد اختلف إليه هؤلاء الطلاب فاشتروا الدفاتر وكتبوا موضوعات الإنشاء ، ولكنهم عدلوا عنه بعد قليل كما عدلوا عن درس الشنقيطى . وأقبل أخو الصبى ذات يوم ومعه مقامات الحريرى ، فجعل يحفظ بعضها رافعاً صوته بالقراءة والصبي يحفظ صامتاً ، ثم أشركه فى الحفظ كما أشركه فى حفظ المعلقات ، ومضيا فى ذلك حتى حفظا عشر مقامات . ثم انصرف الشيخ الفتى إلى الأصول والفقه والتوحيد ، كما انصرف عن المعلقات ودرس الإنشاء .

وأقبل مرة أخرى ومعه كتاب ضخم يسمى نهج البلاغة فيه خطب الإمام علىّ وقد شرحها الأستاذ الإمام نفسه . فجعل يحفظ من هذه الخطب ويحفظ الصبي معه ، ثم أعرض عن هذا الكتاب كما أعرض عن غيره بعد أن حفظ الصبى طائفة من الخطب .

وصنع الشيخ الفتى هذا الصنيع نفسه بمقامات بديع الزمان الهمذانى . ولم ينس الصبى قط قصيدة أبى فراس :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر

أما للهوى نهى عليك ولا أمر

فقد أقبل بها أخوه وقد طبعت مشطرة أو مخمسة ، شطرها أو خمسها بعض الأزهريين ، فجعل يقرأ فى هذه القصيدة ، ثم لم يلبث

أن أعرض عن تشطير الأزهرى أو تخميسه وأخذ فى حفظ القصيدة نفسها مع أخيه .

وإنما ذكر الصبي هذه القصيدة لأنه صادف فى أثنائها بيتاً كان يقع فى أذنه موقعاً غريباً ، وهو قول أبى فراس :

بدوت وأهلى حاضرون لأننى
أرى أن داراً لستِ من أهلها قفر

فقد قرأه الشيخ الفتى وحفظه وأحفظه أخاه :

. . . . لأننى أرى أن دار الستّ من أهلها قفر

وكان الصبي يسأل نفسه عن معنى هذا البيت ، كما كان يرى غريباً أن تأتى كلمة « الست » فى بيت من الشعر . فلما تقدمت به السن وتقدمت به المعرفة أيضاً قرأ البيت على وجهه ففهمه ، وعرف كذلك أن كلمة « الست » ربما جاءت فى شعر المحدثين من العباسيين ونثرهم أيضاً .

وكذلك اتصل صاحبنا بالأدب على هذا النحو المضطرب المختلط ، وجمع فى نفسه أطرافاً من هذا الخليط من الشعر والنثر . ولكنه لم يقف عند شىء من ذلك ولم يفرغ له ، وإنما كان يحفظ منه ما يمر به حين تتاح له الفرصة ، ثم يمضى لشأنه وفناقله .

وفى ذات يوم من أول العام الدراسى أقبل أولئك الشباب متحمسين أشد التحمس لدرس جديد يلقى فى الضحى ، ويلقى فى الرواق العباسى ، ويلقيه الشيخ سيد المرصفى فى الأدب ، وسموا ديوان الحماسة .

وكانوا قد فُتنوا بهذا الدرس حين سمعوه فلم يعودوا إلى غرفاتهم حتى اشتروا هذا الديوان ، وأزمعوا أن يحضروا الدرس وأن يعنوا به وأن يحفظوا الديوان نفسه . وأسرع أخو الصبي كعادته دائماً ، فاشترى شرح التبريزى لديوان الحماسة وجلده تجليداً ظريفاً ، وزين به دولابه ذاك ، وإن كان قد نظر فيه بين حين وحين . وقد جعل أخو الصبي يحفظ ديوان الحماسة ويحفظه لأخيه ، وربما قرأ عليه شيئاً من شرح التبريزى . وكان يقرؤه على نحو ما كان يقرأ كتب الفقه والأصول ، ويتفهمه على نحو ما يتفهم هذه الكتب .

وكان الصبي يحس أن هذا الكتاب لا ينبغي أن يقرأ على هذا النحو ولا أن يفهم على هذا النحو . كان الشيخ الفتى وأصحابه يرون ديوان الحماسة متناً ، وكتاب التبريزى شرحاً ، وكانوا يأسفون على أن أحداً لم يكتب على هذا الشرح حاشية . وكانوا كثيراً ما يقصّون حديث الشيخ إليهم وعبثه بهم وتندره على أساتذتهم وعلى كتبهم الأزهرية .

يقصون ذلك ضاحكين منه معجبين به ، ماضين على الرغم منه فى درسهم الأزهرى لا يفتُرون عنه ولا يقصرون فيه .

وكان صاحبنا يسمع أحاديثهم ، فيبتهج لها أشد الابتهاج ، ويشتاق إلى هذا الدرس أشد الشوق . ولكن أولئك الشباب لم يلبثوا أن أعرضوا عن هذا الدرس كما أعرضوا عن غيره من دروس الأدب ؛

لأنهم لم يروه جداً ، ولأنه لم يكن من الدروس الأساسية فى الأزهر ، وإنما كان درساً إضافيا من هذه الدروس التى أنشأها الأستاذ الإمام ، والتى كانت تسمى دروس العلوم الحديثة ؛ وكانت منها الجغرافيا والحساب والأدب . ولأن الشيخ كان يسخر منهم فيسرف فى السخرية ، ويعبث بهم فيغلو فى العبث .

ساء ظنه بهم ، فرآهم غير مستعدين لهذا الدرس الذى يحتاج إلى الذوق ولا يحتمل الفنقلة . وساء ظنهم به ، فرأوه غير متمكن من العلم الصحيح ولا بارع فيه ، وإنما هو صاحب شعر ينشد وكلام يقال ، ونكت تضحك ثم لا يبقى منها شىء .

وكانوا مع ذلك حراصاً على أن يحضروا هذا الدرس ؛ لأن الأستاذ الإمام كان يحميه ، ولأن الشيخ كان مقرباً من الأستاذ الإمام ، ينتهز كل فرصة لينشئ فى مدحه قصيدة يرفعها إليه ثم يمليها على الطلاب ، ويأخذ بعضهم بحفظها على أنها من جيد الشعر ورائعه . وكانوا يرونها جيدة رائعة لأنها كانت فى مدح الأستاذ الإمام .

وقد بذلوا ما استطاعوا من الجهد للمواظبة على هذا الدرس ، ولكنهم لم يطيقوا عليه صبراً ، فانصرفوا عنه وعادوا إلى شايهم يستمتعون به فى الضحى على مهل . وانقطع عن صاحبنا ذكر الأدب بعد أن حفظ من ديوان الحماسة جزءاً صالحاً . ثم أشيع ذات يوم أن الشيخ المرصفى سيخصص يومين من أيام الأسبوع

لقراءة المفصل للزمخشرى فى النحو . فسعى صاحبنا إلى هــذا الدرس الجديد . ولم يسمع للشيخ مرة ومرة حتى أحبه وكلف به ، وحضر درس الأدب فى أيامه من الأسبوع ، ولزم الشيخ منذ ذلك الوقت .

وكان الصبى قوى الذاكرة ، فكان لا يسمع من الشيخ كلمة إلا حفظها ، ولا رأياً إلا وعاه ، ولا تفسيراً إلا قيده فى نفسه . وكثيراً ما كان يعرض البيت وفيه كلمة قد مضى تفسيرها أو إشارة إلى قصة قد قصها الشيخ فيما قدم من درسه ، فكان صاحبنا يعيد على الشيخ ما حفظ من قصصه وتفسيره وما قيــد من آرائه وخواطره ونقده لصاحب الحماسة وشراحها ، وتصحيحه لرواية أبى تمام ، وإكماله للمقطوعات التى كان أبو تمام يرويها .

وإذا الشيخ يحب الفتى ويكلَف به ، ويوجه إليه الحديث فى أثناء الدرس ، ويدعوه إليه بعد الدرس فيصحبه إلى باب الأزهر ثم يدعوه إلى أن يصحبه فى بعض الطريق . وقد دعاه ذات يوم إلى أن يُبْعِدَ معه فى السير ، حتى انتهى الشيخ وتلميذه هذا وتلاميذ آخرون إلى قهوة فجلسوا فيها ، وكان هذا أول عهد الفتى بالقهوات . وقد طال المجلس منذ صليت الظهر حتى دعا المؤذن إلى صلاة العصر . وعاد الفتى سعيداً مغتبطاً قوى الأمل شديد النشاط .

ولم يكن للشيخ حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب إلا الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه . وكان الشيخ قاسياً

إذا طرق هذا الموضوع . وكان نقده لاذعاً وتشنيعه على أساتذته وزملائه أليماً حقًّا . ولكنه كان يجد من نفوس تلاميذه هوى ، وكان يؤثر فى نفس هذا الفتى خاصة أبلغ تأثير وأعمقه .

وإذا الفتى يؤثر هذا الدرس على غيره من الدروس شيئاً فشيئاً ، ويختص اثنين من التلاميذ المقربين إلى الشيخ بمودته ثم بوقته . وإذا هم يلتقون إذا كان الضحى فيسمعون للشيخ ، ثم يذهبون إلى دار الكتب فيقرءون فيها الأدب القديم ، ثم يعودون إلى الأزهر بعد العصر فيجلسون فى هـــذا الممر بين الإدارة والرواق العباسى ، يتحدثون عن شيخهم وعما قرءوا فى دار الكتب ، ويعبثون بشيوخهم الآخرين ، ويعبثون بالداخلين والخارجين من الشيوخ والطلاب . فإذا صليت المغرب دخلوا الرواق العباسى فسمعوا درس الشيخ بخيت الذى كان يقرأ فى تفسير القرآن مكان الأستاذ الإمام بعد أن توفى .

ولكن الفتية لم يكونوا يسمعون للشيخ الذى يقرأ كما كان يسمع له غيرهم من الطلاب ، وإنما كانوا يسمعون له ليضحكوا منه وليقيدوا عليه أغلاطه ، وكانت كثيرة ولا سيما حين كان يعرض للغة والأدب . وليشنعوا عليه بهذه الأغلاط بعد الدرس ، وليعرضوا هذه الأغلاط من الغد على شيخهم المرصفى ، فيقدموا إليه مادة جديدة للتشنيع على أساتذته وزملائه من الشيوخ .

وقد كانت نفوس هؤلاء الفتية ضيقة بالأزهر ، فزادها الشيخ

ودرسه به ضيقاً . وكانت نفوسهم شيقة إلى الحرية ، فحطم الشيخ ودرسه عنها القيود والأغلال .

وما أعرف شيئاً يدفع النفوس ، ولا سيما النفوس الناشئة ، إلى الحرية والإسراف فيها أحياناً كالأدب ، وكالأدب الذى يدرس على نحو ما كان الشيخ المرصفى يدرسه لتلاميذه حين كان يفسر لهم الحماسة أو يفسر لهم الكامل بعد ذلك . نقد حر للشاعر أولا ، وللراوى ثانياً ، وللشرح بعد ذلك ، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء . ثم امتحان للذوق ورياضة له على تعرف باطن الجمال فى الشعر أو النثر ، فى المعنى جملة وتفصيلا ، وفى الوزن والقافية وفى مكان الكلمة بين أخواتها . ثم اختبار للذوق الحديث فى هذه البيئة التى كان يلقى فيها الدرس ، وموازنة بين غلظة الذوق الأزهرى ورقة الذوق القديم ، وبين كلال العقل الأزهرى ونفاذ العقل القديم ، وانتهاء من هذا كله إلى تحطيم القيود الأزهرية جملة ، وإلى الثورة على الشيوخ فى علمهم وذوقهم وفى سيرتهم وأحاديثهم بالحق فى كثير من الأحيان ، والإسراف والتجنى فى بعض الأحيان .

ومن أجل هذا لم يثبت حول الشيخ من تلاميذه الذين كثروا أول الأمر إلا نفر قليل ، وامتاز منهم هؤلاء الثلاثة خاصة ، فكونوا عصبة صغيرة ولكنها لم تلبث أن بعد صوتها فى الأزهر ، وتسامع بها الطلاب والشيوخ ، وتسامعوا خاصة بنقدها للأزهر وثورتها على

التقاليد ، وبما كانت تنظم من الشعر فى هجاء الشيوخ والطلاب ، وإذا هى بغيضة إلى الأزهريين مهيبة منهم فى وقت واحد .

ولم يكن الشيخ أستاذاً فحسب ، ولكنه كان أديباً أيضاً ، ومعنى ذلك أنه كان يصطنع وقار العلماء إذا لقى الناس أو جلس للتعليم فى الأزهر ، فإذا خلا إلى أصدقائه وخاصتهم عاش معهم عيشة الأديب ، فتحدث فى حرية مطلقة عن كل إنسان وعن كل موضوع ، وروى لخاصته من شعر القدماء ونثرهم وسيرتهم ما يثبت أنهم كانوا أحراراً مثله ، يقولون فى كل شىء وفى كل إنسان لا متنطعين ولا متحفظين ، كما كان يقول .

وكان أيسر شىء وأهونه أن يذهب الطلاب مذهب شيخهم ، ولا سيما إذا أحبوه وأكبروه ، ورأوا فيه المثل الأعلى للصبر على المكروه والرضا بالقليل ، والتعفف عما لا يليق بالعلماء ، والترفع عما كان ينغمس فيه كثير من شيوخ الأزهر من ألوان السعاية والنميمة والكيد والتقرب إلى الرؤساء وأصحاب السلطان .

كان تلاميذ الشيخ يرون منـــه ذلك رأى العين ويلمسونه بأيديهم ، ويعيشون معه ، فى حين كانوا يزورونه فى منزله ذلك المتهدم الخرب القديم فى حارة قذرة من حارات باب البحر يقال لها « حارة الركراكى » . هناك فى أقصى هذه الحارة كان يسكن الشيخ ، يسكن بيتاً قذراً متهدماً ، تدخل فيه من بابه ، فإذا أنت فى ممر ضيق رطب تنبعث فيه روائح كريهة ، قد خلا من كل شىء إلا هذه

الدكة الخشبية الضيقة الطويلة العارية التى قد أسندت إلى حائط يتساقط منه التراب .

وكان الشيخ ينزل لتلاميذه فيجلس معهم على هـذه الدكة ، ولكنه يجلس راضياً مطمئناً ، يسمع لهم باسماً ويتحدث إليهم أرق الحديث وأعذبه وأصفاه وأبرأه من التكلف . وربما كان مشغولا حين يقبل تلاميذه لزيارته ، فيدعوهم إلى غرفته ، فيصعدون إليه فى سلّم متهدم ، ويسلكون إليه دهليزاً خالياً من كل شىء قد انتشر فيه ضوء الشمس . حتى إذا بلغوا غرفته دخلوا على شيخ منحن قد جلس على الأرض ، ومن حوله عشرات الكتب يبحث فيها عن مقطوعة يريد أن يتمها ، أو بيت يريد أن يفسره ، أو لفظ يريد أن يحققه ، أو حديث يريد أن يصحح الرأى فيه ، وعن يمينه أدوات القهوة . فإذا دخلوا عليه لم يقم لهم ، وإنما تلقاهم مستبشراً فرحاً ، ثم دعاهم إلى الجلوس حيث يستطيعون ، ودعا أحدهم إلى صنع القهوة وإدارتها عليه وعليهم . ثم تحدث إليهم لحظات ، ثم دعاهم إلى أن يشاركوه فيما كان بسبيله من بحث أو تحقيق .

ولم ينس الفتى وأحـد صديقيه أنهما زارا الشيخ ذات يوم حين صليت العصر . فلما صعدا إليه لقيا شيخاً قد جلس على فراش متواضع ألقى فى هذا الدهليز ، وإلى جانبه امرأة محطمة قد انحنت حتى كاد رأسها يبلغ الأرض والشيخ يطعمها بيده .

فلما رأى تلميذيه هش لهما ، وأمرهما أن ينتظراه فى غرفته شيئاً . ثم أقبل عليهما بعد حين وهو يقول ضاحكاً راضى النفس : « كنت أعشى أمى » .

كان هذا الشيخ إذا خرج من داره صورة الوقار والدعة ، وأمن النفس وطمأنينة القلب وصفاء الضمير . وكان صورة الغنى واليسار ، لا يحس من يتحدث إليه إلا رجلا قد يُسِّر عليه فى الرزق ، فهو يعيش عيشة أمن وهناءة وهدوء .

ولكن تلاميذه وخاصته كانوا يعلمون حق العلم أنه كان من أشد الناس فقراً وأضيقهم يداً ، وأنه كان ينفق الأسبوع أو الأسابيع لا يطعم إلا خبز الجراية يغمسه فى شىء من الملح . وكان على ذلك يعلِّم ابنه تعليماً ممتازاً ، ويرعى غيره من أبنائه الذين كانوا يطلبون العلم فى الأزهر رعاية حسنة ، ويدلل ابنته تدليلا مؤثراً . يصنع هذا كله براتبه الضئيل الذى لم يكن يتجاوز ثلاثة جنيهات ونصف جنيه . كان من أصحاب الدرجة الأولى ، فكان يتقاضى جنيهاً ونصف جنيه لذلك ، وكان الأستاذ الإمام قد كلفه درس الأدب فكان يتقاضى لذلك جنيهين . وكان يستحيي أن يقبض راتبه أول الشهر ، ويكره أن يختلط بالعلماء وهم يتهافتون على « المباشر » ليتقاضوا منه رواتبهم ، فكان يدفع خاتمه إلى تلميذ من خاصته ليقبض له هذا الراتب الضئيل فى الضحى ويؤديه إليه بعد الظهر .

كذلك كان يعيش هذا الشيخ ، وكان تلاميذه يرونه ويشاركونه فى حياته تلك البائسة الحرة الممتازة . وكانوا يرون ويسمعون من أمر شيوخ آخرين ما كان يملأ قلوبهم غيظاً وحقداً ، ونفوسهم ازدراء واحتقاراً . فأى غرابة فى أن يُفْتَتَنُوا بشيخهم ويتأثروه فى سيرته وفى مذهبه وفى ازدرائه للأزهريين وثورته بما كان لهم من تقاليد !

لم ينكر تلاميذ الشيخ عليه فى ذلك العهد إلا أنه انحرف ذات يوم عن الوفاء للأستاذ الإمام حين تولى الشيخ الشربينى مشيخة الأزهر ، فنظم الشيخ قصيدة يمدح بها الشيخ الجديد ، وكان تلميذاً للشيخ ومحبًّا له . وكان الشيخ الشربينى خليقاً بالحب والإعجاب . وأملى الشيخ المرصفى على تلاميذه قصيدته التى سماها ثامنة المعلقات ، والتى عارض بها قصيدة طرفة . فلما فرغ من إملائها والتف حوله تلاميذه ، مضى فى الثناء على أستاذه ، وعرّض بالأستاذ الإمام شيئاً ، فرده بعض تلاميذه فى رفق ، فارتد أسفاً خجلا واستغفر الله من خطيئته .

وكذلك اندفع هؤلاء التلاميذ فيما دفعهم إليه حبهم للشيخ وتأثرهم به ، فأسرفوا على أنفسهم وعلى شيخهم أيضاً .

لم يكتفوا بهذا العبث الذى كانوا يعبثونه بالشيوخ والطلاب ، ولكنهم جعلوا يجهرون بقراءة الكتب القديمة وتفضيلها على الكتب الأزهرية . يقرءون كتاب سيبويه أو كتاب المفصل فى النحو ، ويقرءون

كتابى عبد القاهر الجرجانى فى البلاغة ، ويقرءون دواوين الشعراء لا يتحرجون فى اختيار هذه الدواوين ولا فى الجهر بإنشاد ما كان فيها من شعر المجون أحياناً فى الأزهر . ويقلدون هذا الشعر ، ويتناشدون ما ينشئون من ذلك إذا التقوا . والطلاب ينظرون إليهم شزراً ، ويتربصون بهم الدوائر ، وينتهزون بهم الفرص . وربما أقبل عليهم بعض الطلاب الناشئين يسمعون منهم ويتحدثون إليهم ، ويريدون أن يتعلموا منهم الشعر والأدب ، فيغيظ ذلك نظراءهم من الطلاب الكبار ويزيدهم موجدة عليهم وائتماراً بهم .

وفى ذات يوم كان صاحبنا يعد مع أحد صديقيه درس الكامل ، فعرضت لهم هذه الجملة من كلام المبرد : « ومما كفّرت الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبى ومنبره : إنما يطوفون برمة وأعواد » . فأنكر صاحبنا أن يكون فى كلام الحجاج ما يكفى لتكفيره ، وقال لقد أساء الحجاج أدبه وتعبيره ، ولكنه لم يكفر . وسمع بعض الطلاب ذلك فأنكروه ، ثم تناقلوه .

وإن فتياننا الثلاثة لفى مجلسهم حول الشيخ عبد الحكم عطا وإذا هم يدعون إلى حجرة شيخ الجامع ، فيذهبون واجمين لا يفهمون شيئاً . فإذا دخلوا على الشيخ « حسونة » لم يجدوه وحده وإنما وجدوا من حوله أعضاء مجلس إدارة الأزهر وهم من كبار العلماء ؛ فيهم الشيخ بخيت ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ راضى

وآخرون . ويلقاهم الشيخ متجهماً ، ثم يأمر رضوان رئيس المشدين أن يدعو من عنده من الطلاب . فيقبل جماعة من الطلاب فيسألهم الشيخ عما عندهم . ويتقدم أحدهم فيتّهم هؤلاء الفتية بالكفر لمقالتهم فى الحجاج ، ثم يقص من أمرهم الأعاجيب .

وكان هذا الطالب ماهراً حقّاً ؛ فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيراً جدّاً مما كانوا يعيبون به الشيوخ ، ومما كانوا يعيبون به الشيخ بخيت والشيخ محمد حسنين والشيخ راضى والشيخ الرفاعى ، وكانوا جميعاً حاضرين ، فسمعوا بآذانهم آراء هؤلاء الفتية فيهم . وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب فى كل ما قال . وسئل الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئاً . ولكن الشيخ لم يحاورهم ولم يداورهم ، وإنما دعا إليه رضوان فأمره فى شدة بمحو أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الأزهر ؛ لأنه لا يريد مثل هذا الكلام الفارغ ، ثم صرفهم عنه فى عنف . فخرجوا وجلين قد سُقط فى أيديهم لا يعرفون ماذا يصنعون ، ولا كيف يصورون هذه القصة لأهلهم .

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ولا عند نظر الطلاب إليهم فى ضحك منهم وشماتة بهم ، ولكنهم أقبلوا بعد صلاة العشاء ليلقوا شيخهم المرصفى وليسمعوا منه درس الكامل . وأقبل الشيخ ، فلقيه رضوان وأنبأه فى أدب ولطف بأن شيخ الجامع قد ألغى درس الكامل ، وبأنه ينتظره فى مكتبه إذا كان الغد .

فانصرف الشيخ محزوناً ، ومضى معه تلاميذه الثلاثة خجلين

وجلين ، والشيخ يسرى عنهم مع ذلك . حتى إذا كانوا فى بعض الطريق خطر لهم أن يذهبوا إلى الشيخ بخيت ليستعطفوه ويوسطوه عند شيخ الجامع . وقال لهم شيخهم : لا تفعلوا ، فلن تبلغوا من سعيكم هذا شيئاً ، ولكنهم مضوا مع ذلك إلى دار الشيخ بخيت . فلما أدخلوا عليه عرفهم فتلقاهم ضاحكاً ، ثم سألهم عن جلية أمرهم فى فتور . فلما أخذوا يدافعون عن أنفسهم قال لهم فى فتور أيضاً : ولكنكم تدرسون الكامل للمبرد ، وقد كان المبرد من المعتزلة ، فدرس كتابه إثم .

وهنالك نسى الفتية أنهم جاءوا مستعطفين ، وأخذوا يجادلون الشيخ حتى أحفظوه . وانصرفوا عنه وقد ملأه الغضب وملأهم اليأس . ولكنهم مع ذلك تضاحكوا من الشيخ وأعادوا بعض كلماته ، وتفرقوا وقد تعاهدوا على أن يخفوا الأمر على أهلهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

ولقوا شيخهم من الغد ، فأنبأهم بأن شيخ الجامع قد حظر عليه قراءة الكامل ، وكلفه قراءة المغنى لابن هشام ، ونقله من الرواق العباسى إلى عمود فى داخل الأزهر .

ثم جعل الأستاذ يعبث بشيخ الجامع ، ويزعم لتلاميذه أنه لم يخلق للعلم ولا للمشيخة ، وإنما خلق ليبيع العسل الأسود فى سرياقوس ، وكان قد فقد أسنانه فكان ينطق السين ثاء ، وكان يتكلم لغة القاهرة فكان يجعل القاف همزة ، ويمد الواو بينها وبين

السين ، وكان يتكلم هامساً ، فلم ينس تلاميذه قط. هذه الجملة التى طبعوا بها الشيخ حسونة رحمه الله ، فسموه « بائع العثل فى ثرياؤوث » .

ولكن بائع سرياقوس هذا كان شديداً حازماً وكان مهيباً صارماً ، يخافه الشيوخ جميعاً ومنهم الشيخ المرصفى ؛ فقد أخذ يقرأ كتاب المغنى ، وذهب إليه تلاميذه مطمئنين ، وما يعنيهم أن يقرأ الشيخ هذا الكتاب أو ذاك . حسبهم أن يقرأ الشيخ وأن يسمعوا منه ويقولوا له وقد سمعوا منه . فلما همّ الفتى أن يقول له بعض الشىء أسكته فى رفق وهو يقول : « لأ ، لأ ، عاوزين ناكل عيش » . ولم يعرف الفتى أنه حزن منذ عرف الأزهر كما حزن حين سمع هذه الجملة من أستاذه ، فانصرف عنه ومعه صديقاه وإن قلوبهم ليملؤها حزن عميق .

على أنهم لم يرضوا بهذه العقوبة التى فرضها عليهم شيخ الجامع ، وإنما فكروا فى الطريق التى يجب أن يسلكوها ليرفعوا عن أنفسهم هذا الظلم . فأما أحدهم فقد آثر العافية وفارق صاحبيه واتخذ لنفسه مجلساً فى جامع المؤيد بمعزل من العدو والصديق حتى تهدأ العاصفة . وأما الآخر فقص الأمر على أبيه ، وجعل أبوه يسعى فى إصلاح شأن ابنه سعياً رفيقاً . ولكن الفتى لم يفارق صاحبه ولم يعتزل عدوًّا ولا صديقاً ، وإنما كان يلقى صاحبه كل يوم فيتخذان مجلسهما بين الرواق العباسى والإدارة ، ويمضيان فيما تعوّدا أن يمضيا فيه من العبث بالطلاب والشيوخ .

وأما صاحبنا فلم يحتج إلى أن يقص الأمر على أخيه ، فقد انتهى الأمر إلى أخيه من طريق لا يعرفها . ولكن أخاه لم يلمه ولم يعنف عليه ، وإنما قال له : « أنت وما تشاء فستجنى ثمرة هـــذا العبث وستجدها شديدة المرارة » . ولكن الفتى لم يكن يعرف رفقاً ولا ليناً ؛ فلم يسع إلى أحد ولم يتوسل إلى الشيخ بأحد ، وإنما كتب مقالا عنيفاً يهاجم فيه الأزهر كله وشيخ الأزهر خاصة ويطالب بحرية الرأى . وماذا يمنعه من ذلك وكانت الجريدة قد ظهرت وكان مديرها يدعو كل يوم إلى حرية الرأى .

وذهب صاحبنا بمقاله إلى مدير الجريدة فتلقاه لقاء حسناً فيه كثير من العطف والإشفاق . وقرأ المقال ثم دفعه ضاحكاً إلى صديق له كان فى مجلسه يومئذ ، فألقى الصديق نظرة على هذا المقال ثم قال غاضباً : لو لم تكن قد عوقبت على ما جنيت من ذنب لكانت هذه المقالة وحدها كافية لعقابك . وهم الفتى أن يرد على هذا الصديق ، ولكن مدير الجريدة قال له مترفقاً : إن الذى يحدثك هو حسن بك صبرى مفتش العلوم الحديثة فى الأزهر . ثم قال له : أتريد أن تشتم الشيخ وتعيب الأزهر ، أم تريد أن يرفع عنك هذا العقاب ؟ قال الفتى : بل أريد أن يرفع عنى هذا العقاب ، وأن أستمتع بحقى من الحرية . قال مدير الجريدة : فدع لى إذاً هذه القصة وانصرف راشداً .

وقد انصرف الفتى ، ثم لم يلبث أن تبين وتبين معه صاحباه ،

أن شيخ الجامع لم يعاقبهم ولم يمح أسماءهم من سجلات الأزهر ، وإنما أراد تخويفهم ليس غير .

ومنذ ذلك الوقت اتصل الفتى بمدير الجريدة وجعل يتردد عليه ، حتى جاء وقت كان يلقاه فيه كل يوم .

وفى مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشىء طالما تمناه ، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم ، ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء ، وكان وهو فقير متوسط الحال فى أسرته ، سيئ الحال جداً إذا قام فى القاهرة . فأتاح له ذلك أن يفكر فيما يكون من هذه الفروق الحائلة بين الأغنياء المترفين والفقراء البائسين .

٢٠

واشتد ضيق الفتى بالأزهر وأهله وبحياته فى القاهرة ، غارقاً فيما لا يحب ، مُقصى عما تشتهيه نفسه ويتحرق إليه قلبه . حتى لقد كان يصل إلى القاهرة فى أول العام الدراسى ، فلا يكاد يستقر فيها حتى يدعو آخره متشدداً فى الدعاء أو ملحاً فيه . والله وحده يعلم كم كان يسعد ويبتهج حين كانت بشائر الصيف تقبل ، وحين كانت أرجاء الحى الذى كان يقيم فيه تمتلىء بهذه الروائح الكريهة التى كانت تبعثها حرارة الشمس فتملأ الهواء وتجعل التنفس ثقيلا بغيضاً ، وحين كان لا يجلس إلى شيخ من شيوخه فى درس من دروس الظهر أو درس من دروس المساء إلا أسرع النوم إلى رأسه فخفق به خفقاً عنيفاً يلفت إليه الطلاب من حوله فيوقظونه جادين أو هازلين .

كان مقدم الصيف يملأ صدره حبوراً وبشراً ؛ لأنه كان يؤذن بقرب الإجازة والعودة إلى الريف والراحة من الأزهر والأزهريين . ولم يكن يحب الإجازة لهذا وحده ، ولم يكن يحبها لأنه سيلقى فيها أهله ، ولأنه سينعم فيها بما كان يمتنع عليه فى القاهرة من طيبات الحياة ، وإنما كان يحب الإجازة لهذا كله ولشىء آخر كان أعظم فى نفسه خطراً وأبعد أثراً من هذا كله ؛ فقد كانت

الإجازة أنفع لعقله وقلبه من العام الدراسى كله .

كانت الإجازة تمكنه من أن يفرغ لنفسه فيفكر — وما أكثر ما كان يفكر ! — ومن أن يخلو إلى إخوته فيقرأ — وما أكثر ما كان يقرأ ، وما أشد تنوعه وأعظم فائدته !

كان شباب الأسرة يعودون من معاهدهم ومدارسهم وقد ملئوا حقائبهم بتلك الكتب التى لا تتصل بدراستهم المنظمة ، ولا يتاح لهم أن يقرءوها فى أثناء العام . وكانت هذه الكتب ألواناً ، منها الجد ومنها الهزل ، منها ما ألف ومنها ما ترجم ، منها القديم ومنها الجديد .

فكان هؤلاء الشباب لا ينفقون أياماً فى الأسرة حتى يسأموا البطالة ويعافوا الكسل ويقبلوا على كتبهم هذه ، فيعكفون عليها نهارهم وأطرافاً من ليلهم . وكان أبوهم الشيخ يحب منهم ذلك ويحمده لهم . وربما ضاق منهم بذلك ولامهم فيه حين كانوا يقبلون على القصص الشعبى فيغرقون فى ألف ليلة وليلة ، أو فى قصص عنترة وسيف بن ذى يزن .

ولكنهم كانوا يقبلون على كتبهم هذه رضيت الأسرة أو سخطت . وكانوا يجدون فى هذه الكتب من المتاع واللذة أضعاف ما كانوا يجدون فى كتبهم الدراسية . وكانوا يقرءون ما ترجم فتحى زغلول عن الفرنسية ، وما كان السباعى يترجم عن الإنجليزية ، وما كان جورجى زيدان يكتب فى الهلال من مقالات ، وما كان

ينشر من قصص ، وما كان يؤلف من كتب فى تاريخ الأدب والحضارة ، وما كان يعقوب صروف يكتب فى المقتطف ، وما كان الشيخ رشيد يكتب فى المنار .

وفى الإجازات قرءوا كتب قاسم أمين ، وكثيراً من آثار الأستاذ الإمام . وكانوا يقرءون هذه القصص الكثيرة التى كانت تترجم لتلهية القراء والتى كانوا يفتنون بما كانوا يجدون فيها من صور للحياة تخالف ما عرفوا فى ريفهم ومدنهم . وكان هذا كله يغريهم بالمضى فى القراءة حتى يسرفوا على أنفسهم ، وربما أسرفوا على أسرتهم أيضاً ؛ فقد كانوا لا يجدون فى الصحف والمجلات إشارة إلى كتاب جديد أو كتاب قديم لم يعرفوه إلا كتبوا إلى الناشر يطلبون إليه إرساله إليهم . وما هى إلا أيام حتى يأتى الكتاب أو تأتى الكتب محولة على البريد ، وحتى تضطر الأسرة إلى أن تدفع ثمنها سواء أرضيت عن ذلك أم ضاقت به .

وكان صاحبنا يحب الإجازة لأنه كان يفرغ للتفكير فى أصدقائه من بعيد ، فيكتب إليهم ويتلقى منهم الكتب ، ويجد فى نفسه لذلك نشاطاً وبه لذة لم يكن يجدها حين يلقى أصدقاءه فى القاهرة ويتحدث إليهم من قريب .

ثم كان يحب الإجازة لأنه كان يلقى فيها شباباً آخرين غير شباب أسرته ، شباباً من بيئة الطرابيش ، منهم من كان فى المدارس الثانوية ، ومنهم من كان فى المدارس العالية ، قد أقبلوا مثله

يلتمسون الراحة بين أهلهم فى الريف . وهم يجدون فى لقائه
والتحدث إليه اللذة والمتاع مثل ما يجد هو فى لقائهم والتحدث
إليهم ، فكان يسألهم عما يتعلمون ويسألونه عما يتعلم . وربما
قرءوا عليه بعض كتبهم ، وربما قرأ معهم شيئاً من الأدب القديم .

ولكنه أنكر بعض إجازاته أول الأمر ؛ فقد حدث حدث فى
أسرته ، فتحولت عن مدينتها التى نشأ فيها الصبى إلى أعلى الإقليم
أول الأمر ، فأقامت فيه عاماً أو عامين ثم تحولت بعد ذلك إلى
أقصى الصعيد ، فأقامت فيه أعواماً طوالا . وكان صاحبنا
شديد الحزن على مدينته القديمة ، شديد الضيق بهذه الأماكن
الجديدة التى لا عهد له بها ، والتى لم يكن يستطيع أن يذهب فيها
عن يمين أو شمال . ولكنه اطمأن أخيراً إلى مدينته تلك فى
أقصى الصعيد حتى ألفها أشد الإلف وكلف بها أعظم الكلَف ،
وأصبحت له وطناً ثانياً ، مع أن زياراته الأولى لهذه المدينة قد
آذته وشقت عليه .

ذهب إليها مع الأسرة كلها لزيارة أبيه الشيخ ، وكان قد بدأ
عمله فيها وحيداً . فلما دبر أمره واستقر به المقام دعا الأسرة
إلى أن تنتقل إليه . وصادف ذلك إجازة الصيف ، فانتقلت الأسرة
ومعها الفتى . ركبت القطار منتصف الليل ، وبلغت تلك المدينة
فى الساعة الرابعة من غد . وكانت المدينة جديدة ، وكان القطار
لا يقف فيها إلا دقيقة واحدة . وكانت الأسرة ضخمة يقودها

أكبر أبنائها ، وفيها النساء والأطفال ، ومعها متاع ضخم عظيم . فلما دنا القطار من المحطة أقبل كبار الأسرة على النساء والأطفال والمتاع يقربون ذلك كله من باب العربة ، حتى إذا وقف القطار دفعوا ذلك كله دفعاً إلى الأرض ، ثم تواثبوا من ورائه ، ومضى القطار ولم ينسوا فيه إلا أخاهم هذا الضرير .

وقد ذعر الفتى حين رأى نفسه وحيداً عاجزاً عن أن يقضى فى أمره بشىء . ولكن جماعة من السَّفْر رأوا عجزه وحيرته ، فرفقوا به وجعلوا يهدئونه . حتى إذا وقف القطار فى أول محطة أنزلوه وأسلموه إلى صاحب التلغراف وعادوا إلى قطارهم .

وقد عرف الفتى بعد ذلك أن الأسرة بلغت دارها فى مدينتها الجديدة ، فجعلت تزور الدار وتتفقد حجراتها وغرفاتها ، وتقر كل شىء فى مكانه . ثم أقبل الشيخ عليها فجلس يتحدث إلى هذا وذاك من أبنائه وإلى هذه وتلك من بناته .

ثم جرى عرضاً ذكر الفتى بعد أن مضى على وصول الأسرة وقت غير قصير . فلما سمع الشيخ اسم الفتى ارتاع وارتاعت أمه وارتاع إخوته ، وهرول الشباب منهم إلى مكتب التلغراف ، ولكنهم لم يبلغوه حتى وجدوا النبأ بأن أخاهم فى المحطة المجاورة ينتظر من يأتى ليرده إليهم . فأرسلوا إليه من جاء به ردفاً على ظهر بغلة كانت تسعى هادئة مرة مهملجة به مرة أخرى ، فتضيف فى قلبه فرقاً إلى فرق وذعراً إلى ذعر .

ولم ينس الفتى قط مجلسه عند صاحب التلغراف ، وكان شاباً نشيطاً كثير الضحك كثير المزاح ، وقد اجتمع إليه جماعة من موظفى المحطة ، فلما رأوا عنده هذا الفتى أنكروه ثم عرفوا أمره ، فأظهروا العطف عليه والرقة له . وقد رأوا شيخاً ضريراً ، فما شكوا فى أنه يحسن قراءة القرآن أو يحسن الغناء . وهم يطلبون إليه أن يغنى لهم شيئاً . فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن الغناء طلبوا إليه أن يقرأ لهم شيئاً من القرآن . فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن التصويت بالقرآن ألحوا عليه وأبوا إلا أن يسمعوه . واضطر الفتى إلى أن يقرأ القرآن خجلا وجلا مستحيياً ضيقاً بالحياة لاعناً للأيام ، وإذا صوته يحتبس فى حلقه ، وإذا الدموع تنهمر على خديه وإذا القوم يرفقون به وينصرفون عنه ، ويتركونه وحيداً أو كالوحيد حتى يأتى من يرده إلى أسرته .

آذت هذه القصة الفتى فى نفسه ، ولكنها على ذلك لم تبغّض إليه المدينة الجديدة ، ولم تزهده فى زيارتها ، وإنما أحبها وجعلت نفسه تشتاق إليها أشد الشوق كلما دنا الصيف ، وإن كان الحر فيها شديداً لا يطاق .

وتغيرت أمور أهل الربع تغيراً شديداً . فأما كبار الطلاب فقد ظفر اثنان منهم بدرجة العالمية ، والتحق سائرهم ، ومنهم أخو الفتى ؛ بمدرسة القضاء الشرعى لأول إنشائها . وأما الفتى فقد فارقه ابن خالته ذاك الذى كان يعينه على وحدته فى الأزهر والربع معاً والتحق بدار العلوم .

ونظر الفتى فإذا هو يعود إلى عزلته القاسية المنكرة التى طالما حمّلته ألوان العذاب فى أول عهده بطلب العلم ، وإذا أمره يزداد شدة وقسوة ، فلن يفرغ له أحد إذا عاد إلى القاهرة بعد انقضاء الصيف . سيذهب أخوه إلى مدرسة القضاء . وسيذهب ابن خالته إلى دار العلوم . وماذا عسى أن يصنع هو وحيداً فى الربع ؟ وأى نفع له أو لغيره فى أن يذهب إلى القاهرة ؟ لقد أخذ من العلم حظّاً لا بأس به . وما عسى أن يفيد من درجة العالمية إن ظفر بها ! وأكبر الظن أنه لن يظفر بها ؛ فإن نيلها يحتاج إلى جهد عظيم لا يستطيع هو أن يبذله وحده . كذلك قال أخوه للأسرة فى يوم من أيام الصيف حين أوشكت الإجازة أن تبلغ أجلها . وقد همّ الشيخ الوالد أن يقول شيئاً فقطع ابنه عليه الكلام بهذه الحجج المفحمة . ولم تجد أم الفتى ما تقول فأرسلت دموعاً صامتة غزاراً . ونهض الفتى فمشى متعثراً حتى خلا إلى نفسه فى إحدى الحجرات جامداً واجماً لا يفكر فى شىء .

وكانت ليلة ثقيلة طويلة لقى الفتى فيها من نفسه عذاباً شديداً . ثم أصبح لا يقول شيئاً ولا يقول له أحد شيئاً ، فقضى نهاراً ثقيلا طويلا . ثم أقبل عليه أبوه الشيخ مع المساء فمسح رأسه وقبله وقال له : ستذهب إلى القاهرة ، وسيكون لك خادم خاص . هنالك أجهش الفتى بالبكاء وأجهشت أمه بالبكاء أيضاً .

وجاء يوم السفر وخرج شباب الأسرة إلى القطار وفيهم الفتى .

وكان أهل الخادم قد ضربوا للأسرة موعداً فى المحطة . فهؤلاء الشباب يبلغون المحطة ، وهذا القطار يصل ولم يأت الخادم . وهؤلاء شباب الأسرة يركبون القطار وهو يمضى بهم وقد تركوا الفتى فعاد به أبوه إلى الدار وكلاهما واجم حزين .

ويأتى الخادم مع الليل فيعود إلى الفتى استبشاره وابتهاجه . ويسافر مع خادمه الأسود الصغير إلى القاهرة بعد يومين وقد حمل إلى أخيه طعاماً وزاداً .

وقد بلغ القاهرة وأقام فيها مع خادمه هذا الأسود ، يختلف معه إلى دروس الأزهر ، ويهيئ له طعام الإفطار ، ويقرأ له قراءة محطمة متعثرة أثناء فراغه .

ولكن الجامعة قد أنشئت ، وإذا صاحبنا يُقبل عليها وينتسب إليها . وإذا هو يختلف مع غلامه الأسود إلى دروس الأزهر مصبحاً وإلى دروس الجامعة ممسياً . وإذا هو يجد للحياة طعماً جديداً ، وإذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لا سبيل إلى الموازنة بينهم وبين أساتذته فى الأزهر .

وقد بعدت الجامعة عن الربع ، وبعدت عنه مدرسة القضاء ، وبعدت عنه دار العلوم ، فلم يبق للجماعة فيه مقام ، وإذا هى تتحول عنه إلى بيت جديد أيضاً فى درب الجماميز .

وإذا الفتى يستأنف حياة لا صلة بينها وبين حياته القديمة إلا أنه كان ربما ألمّ بالأزهر مرة فى الأسبوع أو فى الأسبوعين ،

وإلا أنه كان ربما لقى أصدقاءه من الأزهريين حين كانوا يسعون إلى الجامعة بين حين وحين ، وإلا أنه كان يزور الشيخ المرصفى من وقت إلى وقت .

وفى الحق أن الفتى قد قطع الصلة بينه وبين الأزهر فى دخيلة نفسه وأعماق ضميره ، ولكنه ظل مقيداً فى السجلات . ولم يظهر أباه على ما تم عليه عزمه مخافة أن يحزن الشيخ أو ييأس ، فما كان يعرف من أمر الجامعة شيئاً ، وما كان يعنى من أمر الجامعة بقليل أو كثير .

ولكن الفتى عاد مع إخوته إلى مدينتهم تلك فى إجازة الصيف . وإنهم لفى قراءتهم ذات يوم وإذا البريد يحمل إلى أخيه كتاباً من أحد أصحابه ، وإذا هو يقرأ هذا الكتاب ثم يعيد قراءته على أخيه الفتى فيسمع منه عجباً من العجب .

كان الفتى قد أنفق فى طلب العلم فى الأزهر ثمانى سنين . وكان الأزهر قد تعرض لألوان مختلفة من النظام . فلما كان ذلك الصيف أبيح للطلاب المنتسبين أن يزيدوا مدة انتسابهم النظامية إذا استطاعوا أن يثبتوا أنهم درسوا فى الأزهر أو فى المعاهد الدينية الأخرى قبل أن يبلغوا السن التى كانت تبيح لهم الانتساب النظامى وهو اثنتا عشرة سنة ، ليتعجلوا تقدمهم للامتحان وظفرهم بالدرجات .

وأعلن هذا الترخيص فى أثناء الإجازة ، فيسرع هذا الصديق فيكتب إلى المشيخة طلباً باسم الفتى ، يزعم فيه أنه قد درس فى

الأزهر سنتين قبل أن يبلغ السن القانونية . ويعرض هذا الطلب على اثنين من كبار الشيوخ لم يرهما الفتى ولم يرياه قط ، لم يسمع لهما الفتى درساً ولم يسمعا منه شيئاً ، ولكنهما يقرآن ثم يشهدان بأن الفتى لم يقل إلا حقاً . وأى بأس لذلك وما أكثر من اختلف إليهما من الطلاب ! وكيف السبيل إلى أن يعرفا تلاميذهما الذين لا يحصون !

وكذلك عرف الفتى من حيث لا يدرى أنه قد أنفق فى الأزهر عشرة أعوام وإن لم ينفق فيه إلا ثمانية ، وأنه لم يبق بينه وبين التقدم لنيل الدرجة إلا سنتان اثنتان .

فليصل إذاً من حَبل الأزهر ما انقطع أو ما هم أن ينقطع ، وليظل إذاً طالباً بالجامعتين : بالجامعة الأزهرية كما كان الأزهر يسمى فى ذلك الوقت ، وبالجامعة المصرية . وليحى إذاً هذه الحياة المشتركة التى يتجاذبه فيها قديم الأزهر فى ذلك الحى العتيق بين الباطنية وكفر الطماعين ، وجديد الجامعة فى ذلك الحى الأنيق من شارع قصر العينى .

فلندعه كما كان موضوعاً للصراع بين القديم والجديد . ومن يدرى ! لعلنا نعود إليه مرة أخرى .

* * *

وها أنت ذا يا بنى تهجر وطنك ومدينتك ودارك وتفارق أهلك وأصدقاءك ، وتعبر البحر فى سنك هذه الصغيرة لتطلب العلم وحيداً فى باريس .

فدعني أهدى إليك هذا الحديث لعلك ترتاح إليه بين حين وحين إذا أجهدك درسك ووجدت فى اللاتينية واليونانية مشقة أو عناء . هنالك ترى لوناً لم تعرفه من ألوان الحياة فى مصر ، وتذكر شخصاً طالما ارتاح إلى قربك منه ، وطالما وجد فى جدك وهزلك لذة ، لا تعدلها لذة ، ومتاعاً لا يعادله متاع .

فيك سور سير

يوليو – أغسطس سنة ١٩٣٩

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠



دار المعارف بمصر



٢٠ ص